رثاء المتنبي أخت سيف الدولة الكبـرى

دراسة بلاغية نقدية

بـحـــــث مقـدم مـــــن

معوض محمد علي الخولي

مدرس بقسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين

وأصلي وأسلم وأبارك على خير خلق الله: أفصح من نطق بالضاد ، سيدنا محمد بن عبدالله ، صلاة وسلاما نسأله تعالى أن يفتح لنا بهما أبواب الخير والتيسير

ورضي اللهم عن آل بيته الطيبين الطاهرين ، وأصحابة الخيرة البررة الأكرمين

وبعد

فعلى كثرة الدراسات والبحوث التى قامت حول شاعر العربية : أبي الطيب المتنبي غير أنني لم أقع على دراسة بلاغية نقدية لقصيدته في رثاء أخت سيف الدولة

الكبرى " خـولة "، على أهمية هذه القصيدة تحديدا ، لما أثارته من جدل حول قضية مهمة من حياة المتنبي وهي : عاطفته تجاه المرأة ، وهل أحبَّ أبو الطيب " خولة حقا ، وفيم يختلف رثاء المتنبي لها عن بقية رثائه آل سيف الدولة " أمه ، وأخته الصغرى "؟

فجاءت فكرة هذه الدراسة" رثاء المتنبي أخت سيف الدولة الكبرى ـ دراسة بلاغية نقدية " لتنهض بهذا كله.

❖ـ وقد اعتمدتْ الدراسة على المنهج التحليلي النقدي فيما عرضت له

❖ـ ولا يخفى أن المتنبي من أكثر شعراء العربية الذين شغلوا الناس في زمانه وبعده ،وثارت حوله آراء عديدة بين غال في حبه وتأييده ، ومتحامل عليه مزايد في بُغضه وعداوته وحسده، فكان بحق كما وصفه ابن رشيق بقوله(جاء المتنبي ، فملأ الدنيا وشغل النّاس)(١)

---

[1]) العمدة . ابن رشيق . ت محمد محي عبد الحميد . ط دار الجيل ـ خامسة ـ ١٩٨١م

❖ وقد اجتهدت الدراسة أن تخلع عنها عباءة الغلو في حبّ المتنبي أو التحامل عليه ، وأن تسلك سبيل الإنصاف والوسطية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

❖ فوافقتُ أباالطيب فيما اقتنعتُ به مما ذهب إليه، ورددتُ عنه آراء المخالفين في ذلك .

❖ كما خالفتُ الرجل فيما لم يتضح لي فيه وجه أحمل رأيه عليه ، ولا عصمة لبشر

وبعد

فأُشهد الله أني بذلت ما في وسعي ، فإن أكن وفقتُ فلله الفضل والمنّة ، وإن تكن الأخري فحسبي أني اجتهدت .

واللّهَ أرجو أن يفتح لنا فتوح العارفين ، وأن يبصرنا بما يرضيه عنا ، وأن يستعملنا في خدمة لغة كتابه ولا يستبدلنا ، هو حسبنا ونعم الوكيل

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المتنبي

مالئ الدنيا وشــاغل النـاس

هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، أبو الطيب الجعفي الشاعر المشهور بالمتنبي

ولد ببلدة تسمى كندة من الكوفة سنة ٣٠٣هـ(نشأ أبو الطيب محباً للعلم والأدب وطلبه، وصحب الأعراب في البادية فجاء بعد سنين بدويا ، وقد كان تعلم الكتابة والقراءة فلزم أهل العلم والأدب)([1]) .

لذا جاءت(أدوات المتنبي كلها جيدة، نظمه ونثره، وعربيته ولغته ، وكان شجاعا حسن العقل ، حسن المدارة للملوك)([2]) حتي قالوا عنه:(لم يكن في وقته من الشعراء من يدانيه في علمه ، و لا يداريه في أدبه)([3])

وقال عنه ابن فورجة(كان المتنبي داهية ،مُـر النفس شجاعا، حافظاللأدب،عارفا بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه ويُسقطه إلا بخـلـه وشرهه على المال)([1]).

---

١) المقفي ـ المقريزي ـ ٣٦٧/١– تحقيق محمد اليعلاوي ـ دار الغرب الإسلامي ـ أولى ـ ١٩٩١م

٢) مختصر تاريخ دمشق ـ ابن منظور ـ ٤٩/٣ـ ط دار الفكر ـ تحقيق رياض مراد – روحية النحاس

٣) العرف الطيب – شرح ديوان أبي الطيب – ناصيف اليازجي – ط بيروت ١٨٨٢م صـ١

***ـ وعاش أبو الطيب(محظوظا في حال حياته، مازال معظما عند الملوك وفي حال وفاته)([2]) ولعل هذه الحظوة وذاك التعظيم له عند الملوك وتلك الشهرة الذائعة، قد أورثته حمل بعير من العداوات ،والنيل منه.**

***ـ فقد مُني(المتنبي في حياته، وبعد موته بضروب من العداوات ، قد جعلت تاريخ الرجل مزلة لا تثبت عليها قدم ، ولا يهتدي فيها إلا بصير متثبت)([3])**

***ـ هذا فضلا عن شدة اعتزازه بنفسه ، وكثرة دلـه بذلك على غيره ، وقد شاع ذلك في**

شعره ، مثل قوله

لا بقومي شرُفت بل شرفوا بي وبنفسي فخـــرتُ لا بجـدودي

وبهم فخر كل من نطق الضـــا د وعود الجاني ، وغوث الطريد([4])

وقوله :

وإنـــي لمن قوم كأن نفوسنا بها أنـفأن تسكن اللحم والعظمـأ([5])

---

١)الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ يوسف البديعي ـ ت مصطفى السقا، محمد شتا، عبد زيادة ـ ط ثالثة ـ دار المعارف صـ٩٥

٢)مختصر تاريخ دمشق٣/٥٠

٣)المتنبي ـ العلامة محمود محمد شاكر ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٧م صـ ١٣٤

٤)ديوانه ـ من قصيدة (غريب كصالح في ثمود) ومطلعها : كم قتيل كم قُتلْتُ شهيد

٥) ديوانه ـ من قصيدة (ولا قابلا إلا لخالقه حكما) ومطلعها : ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذما .

***ـ ومن الأدلة العملية على ذلك في مسيرةالرجل أنه اشترط على سيف الدولة ألا**

يُقّبل الأرض بين يديه بل جالسا إلى جواره ، ووافق سيف الدولة(١)، الأمر الذي اثـار حفيظة الشعراء ضده ، وتغيرت صدورهم عليه حسدا ، ووشاية به عند سيف الدولة.

***ـ ولا ريب أن موافقة سيف الدولة على شروط أبي الطيب هي اعتراف بمنزلة الرجل وشأنه ، وتـأكيد على أن الممدوح قد يكتسب فخـره وشرفـه من الشعراء المادحين له فغاية الشرف أن يحظى مثل سيف الدولة بمدح أبي الطيب له ولأسرته ـ فضلا عن دولته ـ وليس أدل على هذا من رسالة أخت سيف الدولة " خولة" لأبي الطيب ـ حين علمت بعزمه على الرحيل تقول له فيها (أستحلفك بالله وبمجد العرب ، وبما تُكنّ لأخي من مودة ألا تفعل . لا ترحل يا ابا الطيب فإن الدولة في أشد الحاجة إليك . أنت قلبها النابض ، وزندهـا المفتول ، وجيشها الذي لايصاول. لا ترحل يا أبا الطيب واستمع لرجاء فتاة تُقدر أدبك وفضلك ، إن الدولة من غير أن يتردد فيها نغم شعرككنانة بلا سهم ، ودوحـة بلا بلابـل ، والسلام عليك في الخالدين)(٢)**

فهذه شهادة من بيت الملوك والأمـراء بأن الرجل هو(الشاعر الفرد الذي لا يكـاد يخفى شعره على أقل الناس بصرا بالشعر)(٣)

***ـ ومن فرائد أبي الطيب(مخـاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع ، وهو مذهب له وتفرد بـه ،**

---

١)الصبح المنبي عن حيثية المتنبي صـ٧١

٢) شخصية المتنبي في آثارعلي الجارم النثرية /مقال : أحمد فضل شبلول ـ مجلة ميدل إيست أونلاين عدد٣٠ ـ٤ـ ٢٠١٠م

٣) المتنبي ـ العلامة شاكر صـ١٨٥

واستكثـر من سلوكه اقتـدارا منه ، وتبحرا في الألفاظ والمعاني ورفعا لنفسـه عن درجة الشعـراء، وتدرجـا لها إلى مماثـلة المـلوك)([1]) .

***ـ وقد سار ذكـر أبي الطيب وشعره(مسير الشمس والقمـر، وسافر كلامه في البدو والحضر ، وكـادت الليالي تنشده، والأيـام تحفظـه كما قال هو :**

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعـرا أصبح الدهـر منشدا

فسار به مَنْ لا يسيرمُشـمـرّا وغنيّ بـه مَن لا يغني مغـردا([2])

وقوله في مواطن أخرى

أنـام مـلء جفـوني عن شواردهـا ويسهـر الخلق جـراها ويختصـم

وما تسـمع الأزمان علمي بـأمرهـا وما تحـسن الأيـام تكتب مـا أملي([3])

وقوله

أنـا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعـت كلمـاتي مَـن به صـــمم

---

١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي صـ٤٣٠

٢) يتيمة الدهـر في محاسن أهل العصر ـ الثعالبي ـ ت د مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ أولى ١٤٠٣هـ ١٣٩/١

٣) ديوانه ـ من قصيدة (الخيـل والبيداء تعرفني) ومطلعهـا : وا حرّ قلباه ممن قلبه شبم

والخيـل والليل والبداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم(١)

فالرجل ـ كما يذكر ابن عساكر ـ كان(محظـوظا في حال حياته، ما زال معظمـا عند الملوك، وفي حال وفـاته، قد انتـدب العلمـاء لديوانه وشرحـوه شروحا كثيـرة)(٢)

***ـ وأغلـب الظن أنه لم يحظ ديوان بمثل ما حظي بـه ديوان أبي الطيب شهرة وذيـوعا، شرحـا وتفسيرا ، أخـذا وردا ، فلم (نسـمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شرح هكذا بهذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان، ولا بتداول شعر في أمثال أو طُـرف أو غرائب على ألسنة الأدبـاء في نظم أو نثـر أكثر من شعر المتنبي)(٣)**

وذلك دليل على (وفـور فضله وتقدم قدمه، وتفـرد عن أهل زمـانه بملك رقـاب القوافي ورق المعـاني)(٤)

***ـ وفي المعنى ذاتـه يذكر المقريزي قوله (وديـوان شعر المتنبي مشهـور، والجيد من شعره لا يُجـارى فيه ولا يُلحـق، والردئ منـه في غاية الرداءة والسقوط، هذا هو الإنصـاف في حقـه)(٥)**

أبو الطيب ينطق عن خواطـر النـاس

ثم إن أبـا الطيب حـاز قصب السبق وفاق أصحـابه بنُطقه عن خـواطر النـاس على حـد تعبير ابن الأثـير(كنتُ سافرت إلى مصـر سنة ست

---

١) الصبح المنبي ٨٩ ـ ٩٠

٢) مختصر تـاريخ دمشق ٥١/٣ ، المتنبي ـ شاكر ٦٥٩

٣) المتنبي ـ شاكر ـ ٦٦١

٤) يتيمة الدهر ١٤٠/١

٥) المقفى ـ المقريزي٦٨٢/٤ ، وشـاكرص ٦٩٢

وتسعين وخمسمائة ورأيت الناس مُكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره، فسألتُ جماعة من أدبائها عن سبب ذلك وقلت: إنْ كان لأن أبا الطيب دخل مصر ، فقد دخلها قبله مَن هو مقدم عليه ، وهو : أبو نواس ، الحسن بن هانئ ، فلم يذكروا لي في هذا شيئا ، ثم إني فاوضت عبد الرحيم البيساتي (القاضي الفاضل) ـ رحمه الله ـ في هذا فقال لي : إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ... ولقد صدق فيما قال)(١)

***ـ ومما بز فيه غيره ما ذكره ابن جني بقوله(وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها ، واستيفاؤه إياها ، فما لا يدفعه إلا ضد ، ولا يستحسن معاندته إلا ندّ، وما أحسبني رأيت أحدا غضّ من هذا الرجل وقتا من الزمان إلا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه ، وعاد إلى تفضيله .... وما لهذا الرجل الفاضل عيب عند هؤلاء السقطة الجهال وذوي النذالة والسفال إلا أنه محدث)(٢)**

حب المتنبي أخت سيف الدولة (خولة) بين القبول والرفض

١) الوشي المرقوم، ضياء الدين ابن الأثير: تحقيق: جميل سعيد، بغداد، العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص٥٤،
٢) الفسر١/

ثار جدل كبير حول حبّ المتنبي للمرأة، فمنهم من يرى أن شخصية المتنبي بما عُرف عنها من تطلع إلى المجد الطامح المعذب ، وضربها في مناكب الأرض بحثا عنه وتحقيقا له ، واستئثار هذا المجد وتلكم الشهرة بنفس أبي الطيب ، قد أخمد كل هذا دواعي قلبه وهتاف أحاسيسه تجاه المرأة، فالرجل يرى (أن التهالك على المرأة والافتتان بها آيــة ضعف الرجل وانبطاحه، وهو ليس من هذا النوع من الرجال)([1])

***ـ والعجيب ـ مع هذا الرأي ـ أننا وجدنا للمرأة حضورا وافـرا في شعر أبي الطيب، فتعلل أصحاب هذا الرأي لهذا بــأنه غزل(متصنــع يصطنعه سيرا على طريق المتقدمين ،لا تلبيــة لرغبة عاطفة متوقدة مشبوبة، أو استجابة لهواتف نفس جامحة)([2]) كما خلص أصحاب هذا الرأي إلى أن المتنبي (في غزله لم يكن صبّا، ولم يعنى المرأة، وإنما هو شيئ اضطر إليه على عادة العرب ، إنه قال شعرا في الغزل في مطلع قصائده)([3]).**

***ـ بينما يرى أنصار الرأي الثاني أن أبــا الطيب قد امتلخ قلبه، وتزلزت جنبات نفسه من حبه أخت سيف الدولة الكبرى(خولة) فاخترقه الهوى وألحت عليه الصبابة، وذهب إلى ذلك الرأي شيخ العربية العلامة " محمود شاكر"ـ طيب الله ثـراه ـ مستشهدا من كلام أبي الطيب بما يثبت ذلك ويقرره([4]).**

---

١)التصوير البياني في شعر المتنبي ـ د الوصيف هلال إبراهيم ـ مكتبة وهبة ـ ثانية ـ دون تاريخ صـ ٤٥

٢) السابق صـ٥٣

٣)السابق ٦٢ ولمزيد حول هذا الأمر يُنظر :(في عالم المتنبي ـ د عبد العزيز الدسوقي ـ دار الشروق ـ ثانية ١٩٨٨م صـ ٩٦،١٠٦،١٥٢،١٥٩،١٧٨)،(كتاب التصوير البياني في شعر المتنبي صـ :٦٧،٦٥،٦٢،٥٣،٤٤) (مع المتنبي د طه حسين صـ ٢١١

٤)انظر تحليله للقصيدة التي رثى المتنبي بها أخت سيف الدولة الصغرى .(المتنبي ـ محمود شاكر ٣٣٦)

***ـ ومن أقوى ما اعتمد عليه شيخنا شاكر في إثبات حب المتنبي خولة ، وأنها ملكت عليه أركانه، رثاؤه لها بهذ القصيدة ـ موضع الدراسة ـ والتي خلص منها إلى(أن هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه وأميره ، وإنما هو كلام قلب محبّ ومفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنية فيه)([1])**

***ـ وإن كان هذا الكلام لم يُعجب د/ طه حسين الذي قال(وما أرى أن هذه القصيدة تدل على صلة قريبة أو بعيدة، أو شبه صلة قريبة أو بعيدة بين المتنمبي وهذه الفقيدة، وكل**

ما يمكن أن يُفهم منها أن الشاعر يتحدث بأن هذ الفقيدة برّته ، وأحسنت إليه عن بُعد)([2]) وقد سايره في ذلك تلميذه د/ عبد العزيز الدسوقي([3]).

***ـ ويُعدّ ما ذهب إليه العلامة الشيخ شاكر أحد الأمور التي تُحسب له ـ رحمه الله ـ لجدتها وإثارتها، وقد كشف عنها ذوقه الفني الرفيع وبصره بدروب تذوق الشعر ، وقد عبر عن ذلك الأستاذ الرافعي ـ رحمه الله ـ بقوله(ومن أعجب ما كشفه ـ يقصد الشيخ شاكر ـ من أسرار المتنبي: سر حبه، فقال : إنه كان يحب خولة ... وهذا الباب من غرائب البحث ، فليس أحد في الدنيا المكتوبة (أي التاريخ) يعلم هذا السرّ أو يظنه ، والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي ، وحتى لم يستطع المرء نفيا ولا إثباتا في خبر جديد**

---

١) السابق ٣٤١

٢) مع المتنبي ـ د طه حسين صـ٢١١

٣) في عالم المتنبي ١٧٨،١٥٩،٩٦

يكشفه الباحث ، ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبك إعجابا يُذكر ، وهذا حسبه فوزا يُعدّ)([1])

***- وأنا أميل إلى ما ذهب إليه شيخنا العلامة شاكر من أن حبّ " خولة " قد غلب قلب أبي الطيب ، بل وهو(السبب الأكبر في هذا التجويد الفذّ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية، وجعله حكيم الشعراء وشاعر الحكماء)([2])**

والرجل قد وقع أسيرا بين عقله وكبريائه ، وثورته وطموحه ، ورجولته وحكمته من ناحية ،وبين عاطفته التي أخضعت كبرياءه لها وزلزت جنبات نفسه يوم سكنها حبّ " خولة " من ناحية أخرى.

***- يكشف عن جانب من هذا الصراع بين عقله وقلبه كثيرا من أشعاره المبثوثة في ديوانه ، فبعد فراقه سيف الدولة ، وما ترتب عليه من كسر قلبه وهدّ بنيانه لما خلفه وراءه من محبوبة وعواطف أنشد يقول:**

وأعلم أن البين يشكيك بعده	فلست فؤادي إن رأيتك شاكيا([3])

فانظر إلى قوله (فلستَ فؤادي إن رأيتك شاكيا) وما يشي به من أثر مغالبته ومصارعته قلبه وعاطفته .

***- ومَن يَعكف على مرثية المتنبي لخولة يجد نفسه أمام شاعر أحاسيسه مع المرثية عالية ومشاعره متوهجة ، ومع هذا لم تخنه عبارة فتُفصح عما في قلبه.**

---

١)المتنبي - الشيخ شاكر ٥٧٩

٢) السابق صـ ٣٣٥

٣) ديوانه من قصيدة مطلعها : كفى بكَ داءً أنْ ترَى المؤتَ شافِيَا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

***ـ ولعل مثل هذا هو ما دفع البعض إلى القول إن أبـا الطيب لم يتسـع قلبه لغير طموحاتـه وتطلعاته ونفسه، بدليل أننا لا نجد في شعره أثرا لهذا الغزل ما نجده عند غيره من الحنين والأنين والبكـاء .**

***ـ ومهما اتفقنا مع هذا القول أو اختلفنا فإن ذلك لا يعني (أن لا يكون أبو الطيب عاشقا صبـّا متدلها ، ما لم نجد في شعره غزلا ولا أنيـنا وحنينا وبكـاء)([1])**

فقد كشف رثاؤه " خولة " ـ على نحو ما ستكشف عنه الدراسة ـ عن خصوصية المرثية عنده ، وأنه لم يكن هنا مُعـزيا فيها أخاها فحسب، إنما هو مكلوم ومفجوع ومُعَزّ، فالرجل في رثائه هنا كان ثكلى وليس نـائحـة، وكما قالوا " ليست النائحة كالثكلى " .

فقد توجد في المُعزّين من تستثير أحاسيس الناس وتستـدرّ دمـوعهم ، وتستبكيهم أمـرّ البكاء دون أن تدمع لها عين فهذه النائحة.

***ـ وقد تضمنت أبيـات رثائـه " خولة "(من العاطفة التي عطفته على هذه التي يرثيها ، وما يتوهج في ألفاظها من نيران قلبه، ولستَ تُخطئ أنين الرجل وحنينه وبكـاءه)([2])**

---

[1])الغزل في شعر المتنبي ـ أ/علي الجندي ـ صحيفة دار العلوم ـ السنة الثالثة ـ ربيع أول ١٣٥٥هـ

[2]) المتنبي ـ العلامة شاكر ٣٤٠

والآن إلى أبيـات القصيدة

من ديوان المتنبي

بشرح عبد الوهاب عزام ط ـ دار بيروت للطباعة والنشر سنة١٩٨٣م

يا أُخْتَ خَيرِ أخٍ يا بِنْتَ خَيرِ أبِ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أشرَفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أنْ تُسْمَيْ مُؤبَّنَةً ... وَمَنْ يَصِفْكِ فَقد سَمّاكِ للعَرَبِ[1]
لا يَمْلِكُ الطّرِبُ المَحزُونُ مَنطِقَه ... وَدَمْعَهُ وَهُمَا في قَبضَةِ الطّرَبِ[2]
غدَرْتَ يا مَوْتُ كم أفنَيتَ من عدَدٍ ... بِمَنْ أصَبْتَ وكم أسكَتَّ من لجَبِ
وكم صَحِبْتَ أخَاهَا في مُنَازَلَةٍ ... وكم سألتَ فلَمْ يَبخَلْ وَلَم تَخِبِ
طَوَى الجَزِيرَةَ حتى جاءَني خَبَرٌ ... فَزِعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ[3]
حتى إذا لم يَدَعْ لي صِدْقُهُ أمَلاً ... شَرِقْتُ بالدّمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي
تَعَثّرَتْ بهِ في الأفْوَاهِ ألْسُنُهَا ... وَالبُرْدُ في الطُّرْقِ وَالأقلامُ في الكتبِ[4]

كأنّ فَعْلَةَ لم تَمْلأ مَوَاكِبُهَا ... دِيَارَ بَكْرٍ وَلم تَخْلَعْ وَلم تَهَبِ[1]

وَلم تَرُدّ حَيَاةً بَعْدَ تَوْلِيَةٍ ... وَلم تُغِثْ داعِياً بالوَيلِ وَالحَرَبِ[2]

أرَى العِرَاقَ طَوِيلَ اللّيْلِ مُذ نُعِيَتْ ... فكَيفَ لَيلُ فَتى الفِتيانِ في حَلَبِ[3]

يَظُنّ أنّ فُؤادي غَيرُ مُلْتَهِبٍ ... وَأنّ دَمْعَ جُفُوني غَيرُ مُنسكِبِ

بَلى وَحُرْمَةِ مَنْ كانَتْ مُرَاعِيَةً ... لحُرْمَةِ المَجْدِ وَالقُصّادِ وَالأدَبِ

وَمَنْ مَضَتْ غيرَ مَوْرُوثٍ خَلائِقُها ... وَإنْ مَضَتْ يدُها موْرُوثَةَ النّشَبِ[4]

وَهَمُّهَا في العُلَى وَالمَجْدِ نَاشِئَةً ... وَهَمُّ أتْرابِها في اللّهْوِ وَاللّعِبِ

يَعلَمْنَ حينَ تُحَيّا حُسنَ مَبسِمِها ... وَلَيسَ يَعلَمُ إلاّ اللهُ بالشّنَبِ[5]

مَسَرّةٌ في قُلُوبِ الطّيبِ مَفرِقُهَا ... وَحَسرَةٌ في قُلوبِ البَيضِ وَاليَلَبِ[6]

إذا رَأى وَرَآهَا رَأسَ لابِسِهِ ... رَأى المَقانِعَ أعلى منهُ في الرُّتَبِ[7]

وَإنْ تكنْ خُلقتْ أُنثى لقد خُلِقتْ ... كَرِيمَةً غَيرَ أُنثى العَقلِ وَالحَسَبِ

وَإنْ تكنْ تَغلِبُ الغَلباءُ عُنصُرَهَا ... فإنّ في الخَمرِ معنًى لَيسَ في العِنَبِ[8]

فَلَيْتَ طالِعَةَ الشَّمْسَينِ غَائِبَةٌ ... وَلَيتَ غائِبَةَ الشَّمْسَينِ لم تَغِبِ[1]

وَلَيْتَ عَينَ التي آبَ النّهارُ بِهَا ... فِداءُ عَينِ التي زَالَتْ وَلَم تَؤُبِ[2]

فَمَا تَقَلَّدَ بالياقُوتِ مُشْبِهُهَا ... وَلا تَقَلَّدَ بالهِنْدِيّةِ القُضُبِ[3]

وَلا ذكَرْتُ جَميلاً مِنْ صَنائِعِهَا ... إلاّ بَكَيْتُ وَلا وُدٌّ بلا سَبَبِ[4]

قَد كانَ كلّ حِجابٍ دونَ رُؤيَتِها ... فَمَا قَنِعتِ لها يا أرْضُ بالحُجُبِ

وَلا رَأيْتِ عُيُونَ الإنْسِ تُدْرِكُها ... فَهَلْ حَسَدْتِ عَلَيها أعينَ الشُّهُبِ

وَهَلْ سَمِعتِ سَلاماً لي ألمّ بِهَا ... فقَدْ أطَلْتُ وَما سَلّمتُ من كَثَبِ

وَكَيْفَ يَبْلُغُ مَوْتَانَا التي دُفِنَتْ ... وَقد يُقَصِّرُ عَن أحيائِنَا الغَيَبِ[5]

يا أحسَنَ الصّبرِ زُرْ أوْلى القُلُوبِ بِهَا ... وَقُلْ لصاحِبِهِ يا أنْفَعَ السُّحُبِ[6]

وَأكْرَمَ النّاسِ لا مُسْتَثْنِياً أحَداً ... منَ الكِرامِ سوَى آبَائِكَ النُّجُبِ

قد كانَ قاسَمَكَ الشخصَينِ دهرُهُما ... وَعاشَ دُرُّهُما المَفديّ بالذّهَبِ[7]

وَعادَ في طَلَبِ المَتْرُوكِ تارِكُهُ ... إنّا لَنَغْفُلُ وَالأيّامُ في الطّلَبِ

مَا كانَ أقصرَ وَقتاً كانَ بَيْنَهُمَا ... كأنّهُ الوَقْتُ بَينَ الوِرْدِ وَالقَرَبِ[1]

جَزَاكَ رَبُّكَ بالأحزانِ مَغْفِرَةً ... فحزْنُ كلّ أخي حزْنٍ أخو الغضَبِ

وَأنْتُمُ نَفَرٌ تَسْخُو نُفُوسُكُمُ ... بِمَا يَهَبْنَ وَلا يَسخُونَ بالسَّلَبِ[2]

حَلَلْتُمُ من مُلُوكِ الأرْضِ كلّهِمِ ... مَحَلَّ سُمرِ القَنَا من سائِرِ القَصَبِ

فَلا تَنَلْكَ اللّيالي ، إنّ أيْدِيَهَا ... إذا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ[3]

وَلا يُعِنّ عَدُوّاً أنْتَ قاهِرُهُ ... فإنّهُنّ يَصِدْنَ الصّقرَ بالخَرَبِ[4]

وَإنْ سَرَرْنَ بمَحْبُوبٍ فجَعْنَ بهِ ... وَقَد أتَيْنَكَ في الحَالَيْنِ بالعَجَبِ

وَرُبّمَا احتَسَبَ الإنْسانُ غايَتَهَا ... وَفاجَأتْهُ بأمْرٍ غَيرِ مُحْتَسَبِ

وَمَا قَضَى أحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلا انْتَهَى أرَبٌ إلاّ إلى أرَبِ[6]

تَخالَفَ النّاسُ حتى لا اتّفاقَ لَهُمْ ... إلاّ على شَجَبٍ وَالخُلفُ في الشجبِ[7]

فقِيلَ تَخلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً ... وَقيلَ تَشرَكُ جِسْمَ المَرْءِ في العَطَبِ

وَمَنْ تَفَكّرَ في الدّنْيَا وَمُهْجَتِهِ ... أقامَهُ الفِكْرُ بَينَ العَجزِ وَالتّعَبِ

❖ حديث إلى المرثية وعنها

يا أُخْتَ خَيرِ أخٍ يا بِنْتَ خَيرِ أبِ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أشرَفِ النّسَبِ

المعنى ([1]):

١) اعتمدت في شرح الأبيات على: شرح عبد الوهاب عزام للديوان/ شرح الديوان للعكبري صـ٥٧-٦٤/شرح الواحدي صـ٦٦٤، شرح ابن جنى " الفَسر " ت د رضا رجب/ ط دار الينابيع ـ دمشق ـ أولي ٢٠٠٤ ج ١/٢٩٢ ، شرح الديوان لأبي العلاء " معجز أحمد " ت : د عبد المجيد دياب ـ ط دار المعارف . ثانية١٩٨٨م ـ ج ٣/ ٥٦٢

يا أخت سيف الدولة ويا بنت أبي الهيجاء ، وهذا كناية عن أشرف النسب، وجعل كونها أختا له وبنتا لأبي الهيجاء نسبا لهـا، وهذا تعظيم لصديقه وحبيبه: سيف الدولة خاصة

***ـ وهنا سؤال يلح : ما الحاجة في أن يقول أبو الطيب" كناية بهما عن أشرف النسب" في عجز البيت ، أليس في صدر البيت غنى وكفاية عن عجزه؟**

والجواب : لا يُغني صدر البيت عن عجز البيت هنا، فقد جاء العَجزُ في حاق موضعه، حيث أبان عن أن قبيلة "خولة " تقع الموقع الأسمى والأشرف بين سادات القبائل ، وهذا ما لم ينهض به صدر البيت،فقد تكون القبيلة خاملة الذكر وضيعة الشرف ويخرج منها فرد ذائع الصيت نـابه، فتتشرف هي به ، ولا يتشرف هو بها ، على حد قول المتنبي نفسه عن فخر قبيلته به ، ولم يفخر هو بها :

لا بقومي شـرُفت بل شرفوا بي	وبنفـسي فخـــرتُ لا بجـدودي
وبهم فخـر كل من نطق الضـا	د وعوذ الجاني وغوث الطريـد (١)

***ـ ويذهب البعض إلى أن عجز البيت (كناية بهما عن أشرف النسب) فيه نقد للمتأمل(٢) ومبررهم في هذا أن الكناية لا تكون إلا فيما يجب ستره وتعميته لكثرة العلل فيه. وفي الرد عليهم يمكن القول : هل الكناية لا تكون إلا فيما يعـاب ويستقبح ذكـره، ويجب ستره وتعميته؟!**

***ـ إن القول بهذا هو عين المجافاة للحقيقة ، بدليل كثرة وقوع الكناية في القرآن والحديث الشريف عما يُستحسن ولا يُستقبح ، خُذ مثلا قوله**

---

١) سبق تخريجها عند التعريف بالشاعر

٢) انظر الصبح المنبي صـ ١٤٧

تعالى" لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان"([1]) فالكناية هنا عن العفة، فهل العفة مما يُستقبح ذكره؟!

- وانظر مثلا إلى قوله صلى الله عليه وسلم(تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)([2]) هل نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكني بكنيته لكونها مما يُعاب ويجب ستره؟! حاشاه ذلك صلى الله عليه وسلم.

***ـ واستهلال أبي الطيب رثاءه " خولة " بهذا الاستهلال يُثير سؤالا هو : ما الفرق الجوهري بين رثائه " خولة " عن رثائه الآخر ؟**

***ـ قد يأتي الجواب أن المتنبي في رثائه " خولة " كان ثكلى ولم يكن نائحة،ففاضت تراكيبه بأصدق شحنات الأسى ولوعة الفراق ، بخلاف رثائه أخته الصغرى مثلا، فلم يخصها سوى ببيتين من رثائه فيها.**

***ـ وقد يأتي الجواب : إنه كان يُعزي نفسه فيها ، فمصاب أخيها ـ سيف الدولة ـ فيها ليس بأعظم مما يجده أبو الطيب من فراقها. وقد يقول ثالث..... وقد يقول رابع .....**

لكني أرى أن كل هذه أعراض الفرق الجوهري ، وليس هو هو.

***ـ إنما الفرق الجوهري في رثائه " خولة " عن رثاء غيرها هو استهلاله رثاء**

" خولة " بخطابها مباشرة بقوله " يا أخت خير أخ يا بنت خير أب "

وهو ما يعني في التحليل النفسي للموقف أن صورة " خولة" مسيطرة عليه ، وملكت عليه أقطار نفسه ، وأن حضورها في عقله ووجدانه مسيطر عليه ولا يغيب ، فلم يعُد يرى غير " خولة ".

---

١) الرحمن ٧٤

٢) البخاري ـ كتاب ـالمناقب ـ باب كنية النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم٣٥٣٨

***ـ يقوي هذا الرأي توجه الشاعر هنا بالنداء على المرثية ـ ويا بُعد ما بينهما ـ لكنه يحسّ بقُربها من نفسه وسكونها قلبه، وكأنها منه بحيث تسمع صوته المجروح ودقات قلبه المكلوم.**

***ـ وكان مقتضى ذلك أن يؤثر أبو الطيب النداء بـ " الهمزة " التي هي في أصل وضعها للقريب ، دون " يـا " التي هي للبعيد.**

لكن أبا الطيب هنا آثر النداء بالياء ـ رغم قُرب المرثية من نفسه ـ نظرا للبُعد المعنوي ، وعلو شأن المرثية ورفعة قدرها ، وذلك تعظيما لها.

***ـ ورغم أن الموقف دال على شدة القُرب إلا أن أبا الطيب يُلقي طبقات رقيقة من الظلال بين يديّ مطلع رثائه" خولة " (فثمة ستر أول في قوله " يا أخت خير أخ" كأنه لم يكن كافيا فأردفه بستر ثان في قوله " يا بنت خير أب " وبستر ثالث في قوله مكنّيا لا مصرحا " كناية بهما "وبستر رابع في جنوحه إلى(أشرف النسب)،الذي هو عند التأمل إمعان في تكثيف الستار بعد أن وضع ستر الأخ والأب ، وبعد أن كنى ، وبستر خامس في رفضه الصريح التصريح باسمها " أُجلّ قدرك أن تُسمي مؤبنة" وبستر سادس في الوصفية " ومن يصفك فقد سماك للعرب " يُضاف إلى ذلك عدم تصريحه باسمها بقوله " كأن فعلة " ويُسمي د محمد الربيعي هذا التعبير " الكشف " عن طريق " الستر " أو إظهار الموضوع بواسطة إسدال الستر الرقيقة عليه ، أو الوضوح عن طريق الغموض)([1])**

***ـ ولعل هذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أبا الطيب كان شاعرا**

[1]) قصيدة الرثاء عند المتنبي ، الرؤية والأداة . رسالة ماجستير ـ إعداد سند علي الجهني ـ إشراف أستاذنا الدكتور محمود توفيق سعد . جامعة أم القرى . كلية اللغة العربية ـ صـ١٣٠

متيما ، غير أنه كان يُصارع قلبه وعقله ، فالرجل يخشى أن تنم عنه كلمة أو يفضحه تركيب ، أوتذل نفسه في محراب الحبّ على ما كان يضطرم في فؤاده من نار الصبابة.

أُجِلُّ قَدْرَكِ أنْ تُسْمَيْ مُؤْبَّنَةً وَمَنْ يَصِفْكِ فَقد سَمّاكِ للعَرَبِ[1]

المعنى :

أُجل قدرك أن أُصرح باسمك وأنت مرثية، لكن مَن يصفك بما فيك من المناقب والمآثر فقد عرّفك ، لأنها ليست في غيرك.

وبيت أبي الطيب هنا شبيه بقول أبي نواس

فهي إذا سميت فقد وصفت	فيجمع الاسم معنيين معا(١)

وبيت أبي الطيب هنا من أكبر الشواهد ـ فوق ما مضى وما سيأتي ـ على صدق حبّ أبي الطيب " خولة " ، ذلك أنه بعد حديثه عن أخيها " خير أخ" وعن أبيها " خير أب " أسرع في العودة إلى محبوبته بقوله " أُجل قدرك " دلالة على أنه لا يرى غيرها أمامه ، ولم يعُد يتحمل للحديث عنها فراقا، فأسرع في العودة إلى الحديث عنها.

***ـ وقارن بين قول أبي الطيب هنا " ومن يصفك فقد سماك للعرب" وبين لو قال ـ مثلا ـ " وحين أصفك فقد سميتك للعرب " تجد البون شاسعا ، لأنه في بيت القصيدة قد وضع المعنى في صورة الشيوع الذي لا تُخطئه العين ـ وهذه عادة المتنبي غالبا وستأتي شواهد عليها ـ فدفع بهذا توهم السامع خلاف المراد ، فقد يُتوهم لو قال " وحين أصفك فقد سميتك للعرب " أن هذا خاص به هو لا يتعداه إلى غيره.**

***ـ وقوله " ومن يصفك فقد سماك للعرب " كناية عن الشهرة و ذيوع الصيت ، أي كناية عن صفة.**

والسؤال هنا : لماذا كل هذا الإجلال ، وما إعراب " مؤبنة" ؟ وما المعنى الدائر على كل إعراب؟ والجواب :

---

[1]) خزانة الأدب ـ البغدادي ـ ت عبد السلام هارون ـ ط الخانجي ـ ٤٤٧/٦ باب الكنايات الشاهد٤٨٦

***ـ هذا الإجلال مبعثه ما لـ " خولة " من منزلة في قلب أبي الطيب ، فوق أنها عادة العرب في الرثاء ، والرجل يجري على سنة قومه في البيان.**

***ـ وأما قوله " مؤبنة" فقد تكون مفعولا ثانيا لـ " تُسمي" وقد تكون حالا ، والأبلغية هنا تقتضي صرفها إلى " الحالية" بدلا من " المفعولية.**

***ـ وذلك لأن الحال قيد في عاملها ووصف لصاحبه ، فالشاعر هنا يلمح الوصفية في الكلمة ، ولا يقصد " العلمية ـ التي تطلق على الذات ـ حتى نصرف إليها الكلمة على أنها مفعول ثان.**

***ـ وهذا يقتضي سؤالا آخر : هل يُفهم من إعراب " مؤبنة " حال أن إجلال أبي الطيب لها مُقيدا بحال التأبين، وفي غير التأبين لا حرج أن يُصرح باسمها، وأنها لو كانت حيّة ومدحها لسماها باسمها؟**

والجواب : إجلال أبي الطيب لـ " خولة " غير مقيد بحال التأبين ، وذلك لعدة عوامل :

***ـ أنها محبوبته الماثلة امام عينيه ، فهو يراها في كل شيئ ، وتجربته في هذه القصيدة ناطقة بهذا .**

****ـ أن الشاعر بعد هذا البيت بستّ أبيات جاء بوزن اسمها " فعلة " وليس بصريح اسمها وذلك في قوله(كأن فعلة لم تمأ مواكبها)**

***ـ ثم إن القرائن لتثبت أن " خولة " على حياة عينها لم تكن مبتذلة أو تراها العيون، يؤيد هذا قول المتنبي في القصيدة هنا :**

قد كان كل حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يا أرض بالحُجب

ولا رأيت عيون الإنس تُدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب

وهل سمعت سلاما لي ألمَّ بها فقد أطلتُ وما سلمت من كثب

***ـ ولا ريب أن هذا التمنع والاحتشام من " خـولة " درس لنسـائنا وبنـاتنا حفاظـا على حيـاء المجتمع وطهـره وعفـافه.**

لا يَمْلِكُ الطَّرِبُ المَحزُونُ مَنطِقَه وَدَمْعَهُ وَهُمَا في قَبضَةِ الطَّرَبِ[1]

المعنى:

لايملك الإنسان منطقه ودمعه إذا صارا في قبضة الطرب، وذلك لغلبة الحزن على قلبه . والطرب : خِفة تعرض للإنسـان من فرط السرور أو الحـزن(١) والبيت هنا يُكمل ويقرر ما سبق ذكره في البيت السابق ، حيث وضع الشاعر المعنى في صورة قضية عامة ، فقد صدّر البيت بما يُشبه المقدمة المتفق عليها ، ليخلص إلى النتيجة المرجوة ، فكأنـه يقول:

كما هو متعارف أن الطرب المحزون لا يملك منطقه ودمعه، فكذا أنـا طـرب، فلم العتاب والمـلام؟!

وهذا يكشف عن فقه الرجل طبـائع البشر، ولا ننسى أن أبا الطيب هو حكيم الشعراء وشاعر الحكماء.

***ـ كما أن البيت بهذه الصياغة دفعت تـوهم السامع خلاف المراد ، فلو قال مثلا " لآ أملك منطقي ودمعـي " لتوهم السامع أن هذا مقصور على الشاعر ، أمـا الطرب غيره فقد يملكهما ، فجاء قوله " لا يملك الطرب المحزون منطقـه " دافعـا لـهذا التوهـم ، حين اخرج المعنى في صورة القضية العامة.**

---

١)الفسر ٢٩٤/١

أبــو الطيب في فقــه اللغــة أمــة

***ـ ومن الدليل على ذلك حُسن توظيفه للمفردة في تراكيبه ، ولا أدل على هذا من كلمة" الطرب "ـوالتي تعني الخفة والهزة التي تنتاب المحزون أو المسرورـ فلم يُـرد الشاعر أن يُطلقها هكذا تنصرف إلى المعنيين على سواء ، إنـما قيـّدها وصرفهـا إلى المعنى الملائم لمقـام الرثـاء بقوله" الطرب المحزون" فقيده بكونه " طربا محزونا " ليُحـدد دلالة الكلمة**

***ـ ثم إن تقييده " الطرب " هنـا بالحُزن قد فوت الفرصة على الشامتين المتربصين بـه ـ وما أكثرهم! ـ من أن يطيروا بكلمته في الآفـاق وقيعة وإفسـادا بينه وبين سيف الدولة فيما بقي من ودّ.**

***ـ كما أن قوله " لا يملك الطرب المحزون منطقه "جـاء بمثابة الاعتذار عن استهلاله القصيدة بالحديث عن خولة ، فيحتمل أن يكون ردا وتعليلا على من يعيب علي أبي الطيب هذه الدفقة الحزينة، لاسيما ونـفْسُ الشاعر نـفس أبيـة شامخـة، فهل يبلغ بالرجل إلى هذا المدى! خاصة أن المرثية ليست أمه أو ابنته أو أخته.**

***ـ فـأراد بقوله هذا الـردَّ عليهم والتعليلَ بأن الإنسان لا يُـؤاخذ إلا عمـا له فيه إرادة ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (إنـما الأعمال بالنيات)(١) أي بالإرادة والقصد، وهو هنا لا إرادة له ، فليس لهم أن يـأخـذوا عليه.**

***ـ ولعل أبا الطيب رأى نفسه في صورة يُنـكرها(ينتحب، يبكي ، يشرق بالدمع...) فاستشعر أنه جرح كبريائـه ، فاعتذر بهذا البيت ، بكـونه تحت وطأة الحزن ولا إرادة له، فصاحب الكبرياء**

---

١) البخاري ـ كتاب بدء الوحي ـ

والنفس الشمـاء قد ذلَّ في محراب الحب فبكى، وهو أمارة على صدق حبه ، ولا ننسى أنه هو القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني	والسيف والرمح والقرطاس والقلم

***ـ كما يحتمل أن يكون أبو الطيب قد استشعر أنه بـاح ببعض ما لا يجـوز أن يبـوح به ، فقد شعر أن ما استـهلّ به قد نـمّ عما يُضمره في صدره من حـبّ " خولة " وقد أخفـاه سنين على الدنـيا،وهنا غُلب على الرجل فأبـان عن بعضه، فاستدرك معتذرا بهذا البيت.**

***ـ وقد جعل الشاعر لـ الطرب " قبضـة " على سبيل الاستعارة المكنية ، والتي صورت (كيف استبد بـه الحُزن ، فلم يـعُد قادرا على النطق بعد أن أصبح في قبضته)([1]) .**

غدَرْتَ يا مَوْتُ كم أفنَيتَ من عدَدٍ بمَنْ أصَبْتَ وكم أسكَتَّ من لجَبِ

المعنى :

غدرت يا موت حين أخذت " خـولة " فأفنيت بذلك العدد الكثير من البشر، وأسكت أصواتهم.

***ـ وهنا نتذوق جمال المبالغة في قول أبي الطيب " كم أفنيت من عدد" ففي الظاهر وبالنظرة العجلى نجد أن الموت أفنى واحدة**

---

١) التصوير البياني في شعر المتنبي - ٣٦٤

هي " خولة "، أما في الحقيقة وبالتريث نجده قد حكم على الكثير بالفناء حين غدر وأخذ " خولة " .

***ـ و " كم " هنا خبرية ، وليست استفهامية بدليل دخوا الجار على تمييزها.**

***ـ وهذا البيت شديد الصلة في المعنى بقول ابن المقفع:**

وأنت تموت وحدك ليس يدري	**بموتك لا الصغير ولا الكبير**
تقتلني فتقتل بي كريما	**يموت بموته بشر كثير([1])**

***ـ وقد يُفهم من قوله " وكم أسكت من لجب " أن غدرة الموت بـ " خولة " قد أسكتت وأخرصت العديد من ألسنة البصاصين ، والتي كانت تغمز وتلمز حبّ أبي الطيب " خولة "، وعلى رأسهم ـ بالطبع هنا ـ ابن عمها : أبو فراس الحمداني الذي تولى كبر إفساد ما بين أبي الطيب وسيف الدولة ، فقد كان ينافس المتنبي حبّ " خولة " ([2])**

***ـ والآن : بغدرتك يا موت بها ، فقد انته المعركة وفرغ الصراع ، وانفض السامر ، وأراح الموت كُلاً من كُلّ .**

والشعر الثريّ النفيس حمّال أوجه.

***ـ والبيت هنا دليل واضح على أن شاعرنا كان يُحسن التخلص غاية الإحسان في انتقاله بين أغراض وعناصر القصيدة ، وبيان ذلك ما يلي :**

---

١) ديوان المتنبي بشرح العكبري

٢)المتنبي ـ شاكر ـ ٣٤٢

***ـ الشاعر بعد أن استهل حديثه عن "خولة " وإليها ، انتقل بالحديث إلى الموت بقوله هنا " غدرت يا موت كم أفنيت من عدد "**

وعلاقة هذا البيت بما قبله واضحة ، فباعتبار قانون ترابط المعاني وتماسك التراكيب ،يمكن القول إن : قوله " غدرت ياموت ..." ليس هجوما ولا قولا منقطع الصلة بما قبله ، وذلك لأن الموت حاضر لا يغيب ، وذكره والحديث عنه وإليه هو صمام أمن البشرية لترتدع من غيها وبطشها ، وتفيق من غفوتها ، ولا ننسى أننا هنا مع شاعر حكيم فليسوف،فكان لابد من الحديث عن الموت وفلسفته ، لكونه حاضرا ماثلا في ذهنه أبدا ، وهذه دلالة(تشير أجلى إشارة إلى أنه كان يحسّن بالفناء)([1])

***ـ ومما يكشف عن هذا في شعر أبي الطيب قوله ([2]) :**

إنّي لأجبنُ عَن فِراقِ أحِبّتي وَتُحِسّ نَفسِي بالحِمامِ فأشجُعُ

ولا أريد الإطالة في الاستدلال من شعر الرجل على هيمنة الموت على فِكر الرجل ([3])

وعليه فبيت القصيدة هنا في أتم سياقه وصميم موقعه.

وقد نَعَتَ شاعرُنا الموت بـ(الغدر) هنا على طريق الاستعارة المكنية، فصوّرت هذه الاستعارة مدى ما يشعر به شاعرنا من لوعة ومرارة، فراح يُعنّف الموت ويصفه بالغادر.

---

١)لغة المتنبي . د إبراهيم عوض . ط الشباب الحرّ . القاهرة ـ صـ٦٤

٢) ديوانه من قصيدة " قبحا لوجهك يا زمان " ومطلعها : الحزن يُقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيع

٣) وددت لو نهض باحث مجتهد بدراسة " الموت في شعر المتنبي "فوقف على معجم الرجل الشعري في هذا، ودلالة كل لفظة وسياقات ورود كل لفظة من ألفاظ هذا المعجم الشعري، مع ربط كل ذلك بما عرف عن شخصية الرجل من الإقدام والإقبال على الحياة وتطلعه إلى العُلا من مجدها...

***- ولم يكتف شاعرنا بذلك بل كَثَفَّ استعارته المكنية ثانية في صدر البيت ذاته حين جعل من الموت مُخاطَبا يُخاطَبُ، ويُحاسب على أفعاله،فاستحال الموتُ في وعيّ أبي الطيب كائنًا حيًّا، أُفْرِغَتْ عليه الحياة، ونُفخَتْ فيه الروح واتصف بصفات مَنْ يعقل، يُنادي فيتأتى منه الجواب، ويُعنّف ويُلام على غَدرته، وذلك كله في نداء أبي الطيّب على الموت (غدرت يا موت)، فكشف نداؤه هنا عن (قلب مستفز مكروب، وصار يُنادي من لا ينادي، ويُسائل من لا يُجيب)[1].**

***- ونداؤه على الموت هنا يُعدّ شحنة من شحنات إفراغ نفسه ، وتنفيس حزنه ، وتخفيف فجيعته.**

وكم صحبتَ أخاها في وكم سألتَ فلم يبخلْ ولم

المعنى:

لقد لازمت أخاها وأعطاك ما تُريد وفوق ما تُريد من أجسام الأعداء لتخترمها - من خلال جهاده ومعاركه - فلماذا غدرتَ بالمُعطِي وهم لم يبخل عليك - بخطفك أخته!

*** - وخيال أبي الطيب هنا واسع محلق.**

*** - والمتنبي هنا يصف سيف الدولة بنوع فريد من ألوان الجود، لا نكاد نراه عند غير سيف الدولة وهو جوده على الموت برقاب أعدائه، والمعهود هو الجود بالمال ونحوه على الفقراء والمحاويج، وجُود سيف الدولة على الموت بالنفوس مبالغة رائقة.**

***- وهذا البيت مع سابقه (قد أحسن الشاعر فيهما الملاءمة بين مدح الأحياء ورثاء الموتى كل الإحسان، فرائع حقًا لوم الموت على هذا الغدر القبيح الذي تورط فيه حين خان الصديق وعقّ المحسن إليه فكم صحب الموتُ سيفَ الدولة**

---

(1) دلالات التراكيب . شيخنا د.محمد أبو موسى . مكتبة وهبة . ثانية . ١٩٨٧م . صـ٢٦٤.

في الحروب؛ وكم جاد سيف الدولة على الموت بما كان يُريد من نفوس، فكان من الحق عليه ألا يخون صديقه هذا الجود الوفي الذي لم يبخل عليه بنفس ولم يخيب له أملًا)[1].

تصوير أثر الفاجعة فيمن حولها:

طَوَى الجزيرة حتى جاءني خَبَرٌ ... فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذب

حتى إذا لم يَدَع لي صدقه أملًا ... شَرِقْتُ بالدَّمع حتى كاد يشرق

المعنى:

قطع خبر وفاتها الجزيرة[2] إليّ، وساعتها رجْوتُ أن يكون كذبًا ، وتعللتُ بهذا الرجاء فلما تحقق صدقه ولم يبق فيه موضع أمل، بكيتُ جزعًا، حتى سار دمعي وجرى في حلقي وشرقت بالدمع الذي زاد وفاض حتى كاد يشرق هوبي لإحاطته بي.

*ـ ويذهب العلامة محمود شاكر ـ رفع الله ذكره ـ أن البيت (طوى الجزيرة حتى جاءني خبر) هو أول بيت في القصيدة وإلّا فموضعه في القصيدة ـ بعد خمسة أبيات ـ يُمثّل انقطاعًا وبترًا للمعنى عن السياق الكُلي، ومعنى هذا أن أبا الطيّب حين رتّب ديوانه قَدَّم وأَخّر.

فهل أوافق شيخنا شاكر على هذا؟

أرى أن هذا البيت ليس أول القصيدة ــ كما ذهب شيخنا شاكر ــ بل الترتيب الموجود للقصيدة هو الترتيب المُقْتَضَى، لأن الواقع النفسي للشاعر يجعله لا يُصدّر قصيدته بغير ما صدرّرها به.

---

(1) مع المتنبي . د.طه حسين . صـ٢١١.

(2) مدينة معروفة بين الموصل وميار فارقين على شاطئ دجلة . انظر شرح الديوان للمعري.

***ـ ولعل اجتهادنا في كشف علاقة هذا البيت بغيره ـ رغم دقتها وأنها لا تكاد تُلمس ـ هو ما يُزيل هذا اللبس ويُقويّ رأينا.**

فهل الحديث مُنصّبُ في المقام الأول في البيت الذي معنا على الخبر ومجيئه؟

لو كان كذلك، لكان هناك انقطاع بين البيت وبين غيره، كما ذهب شيخنا شاكر ـ طيّب الله ثراه ـ .

***ـ لكني أرى أن هذا لم يقصده أبو الطيب ولم يُرِدْه.**

فقد قصد أبو الطيّب وصبّ اهتمامه على بيان أثر الخبر عليه، ولم يَعْمد إلى الخبر نفسه ومجيئه ـ وبين المعنيين بون شاسع ـ وعليه فقوله(طوى الجزيرة ...) يريد أن يُعبّر به عن أنه بموت «خولة» فَقَدَ كل أمل في الحياة (فزعت فيه بآمالي إلى الكذب)

***ـ وعليه فبيت القصيد هنا هو أن آماله منوطة ببقاء «خولة» وبموتها انتهت كل الآمال، وانظر إلى دلالة (فزعت ـ آمالي ـ شرقت بالدمع) حتى تأكد له صدق خبر موتها وهنا ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.**

وهنا يجدر التذكير بأن فناء الإنسان يكون بأحد أمرين:

(أ) الموت (ب) فقد الآمال

والموت بالأمر الأول أهون وأرحم من الموت بالثاني، ولذا قيل (إنما الميت ميت الأحياء).

*** وهذا البيت مما استدلّ به شيخنا شاكر ـ رحمه الله ـ على حُبّ أبي الطيّب «خولة» إذ يقول (وقد غلب أبا الطيب بيانه في هذين البيتين فصرح فيهما بكل ما يضمر لخولة من الحبّ. انظر كيف جعل الخبر يطوي الجزيرة كلها يقصده وحده دون غيره، وقد خصص ذلك بقوله (جاءني) وفي هذا من غلب الحبّ على قلب أبي الطيب ما جعله يرى أن هذا الخبر بموتها ـ الذي سمعه وهو بالعراق، وكان قد علمه الناس ولا شك ـ لم يقطع أرض الجزيرة إلّا ليُبلغُه هو، والحبّ دائمًا يخصُّ ويضيِّق بمثل ذلك، ولا يرى فيه الشركة، ولو تساوى الناسُ**

جميعا في المشاركة فيه أو العلم ثم إن أبا الطيب نسب الفزع الذي لحقه إلى آماله، إذ كانت آماله كلها في الحياة بعد حُبّه لخولة متعلقة بها وبحياته، فلما جاء الخبر بموتها فزعت آماله هذه أملًا أملًا إلى الشكّ في الأمر الواقع، وإلى طلب الحيلة في ردّه وتكذيبه، عسى أن تجد لها مُتعلَّقا تستمسك به.

فلما أخفقت الآمال أملًا أملًا، وقطَّعها الخبر الذي سمعه بالصدق واليقين، سقطت نفسُ الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوتها وغرقت في دمعها حتى شرقت به. وهذه حالة في الحبّ القويّ العنيف الذي يستولى على القلب، ولا يجعل للحياة بآمالها معنىً إذا فقد مَنْ يُحبُّ أو ساءه من أمره ما يسوءه. فهذا من أبي الطيب دليل على أن كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه وأميره، وإنما هو قلب محبٍّ مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنية فيه)[1].

***ـ وقد اعترض الدكتور عبدالعزيز الدسوقي على النتيجة التي انتهى إليها شيخنا شاكر هنا من حُبّ المتنبي «خولة»، وقد بنى الدكتور الدسوقي رأيه على أن مثل المتنبي لا يعرف الحبُ إلى قلبه طريقًا، فإنه لم يُحبّ ـ بعد جدته إلا نفسه، والسبب في ذلك ـ كما يرى ـ هو سعيّه الدائب إلى تحقيق طموحه وتطلعاته، فقد أسكت ذلك كل هواتف نفسه وأشواق قلبه (صحيح أنه أحبَّ سيف الدولة حبًا عميقًا ولكنه أحبه كل هذا الحبّ لأنه كان النموذج الرفيع الذي يحقق من خلاله طموحه وأمجاده... بكلمات أدق: إنه كان يحبّ نفسه مرتين من خلال حُبّه لسيف الدولة ولذلك فجر في نفسه موت «خولة» هذا الإحساس الجريح بالإخفاق وتبدد الأحلام وغروب الحياة.**

فراح يرثيها وكأنه يرثي نفسه وأحلامه البديدة وأمانيه الذاهبة. وعلاقته بسيف الدولة المتشعبة المتصدعة، ولعل هذا هو السبب فيما نحسّ فيها من صدق فتي ووهج روحي)[2].

---

(١) المتنبي . شاكر . صـ٣٤١.

(٢) في عالم المتنبي . صـ١٦٠.

*** ويمكن أن يصدق كلام الدكتور الدسوقي إذا كان الميت هو سيف الدولة وله ساعتها ما يبرره.**

*** لكن ما علاقة موت «خولة» بإخفاق أبي الطيّب وتبدد أحلامه؟**

اللهم إلّا إذا كانت هذه الأحلام هي تحقق ارتباطه بـ«خولة» ارتباط المحبّ الواله بحبيبه. وهذا عين كلام شيخنا شاكر، والذي سعى الدكتور الدسوقي إلى نقضه، فلم يتحقق له ذلك.

*** ثم هل كانت «خولة» هي المبرر الوحيد لارتباط المتنبي بسيف الدولة وملازمته، فتموت بموتها كل أمانيه وأحلامه التي ارتبط من أجلها بسيف الدولة؟!**

*** وقد لعبتْ الاستعارة المكنية في قوله (طوي الجزيرة ـ جاءني خبر) دورًا بارزًا في تجسيد الموقف، حيث أسند الشاعر (للخبر ما يجعل له قوة وسرعة ((طوى الجزيرة حتى جاءني خبر) على سبيل الاستعارة المكنية التي جسدة الخبر ونفخت فيه الروح فقطع المسافات وطواها في خفة وسرعة حتى واجه المتنبي بقسوته وكأنما كان يعمده، ويقصده «جاءني خبر»)[1].**

*** كما أبان التنازع في البيت[2] عن جانب من نفسية أبي الطيب، وتقلبها في الحيرة والتردد، وتنازع التصديق والتكذيب لها حيث جاءها خبر وفاة «خولة».**

*** وانظر إلى بديع الاستعارة المكنية في قوله: (شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي)**

فهي صورة موغلة في التخيل والمبالغة الرائقة، فمقبول تصوّر أن يشرق الإنسان من دمعه على سبيل المبالغة، أما شروق الدمع بالإنسان، فكيف يُتصور؟!

---

(١) التصوير البياني في شعر المتنبي صـ٤٣٨.

(٢) التنازع في جعله (خبر) فاعلًا لكلٍ من (طوي) ، (جاءني).

فالإنسان إذا ما أصابته غُصّةٌ زالها بالماء، فكيف يَغُصُّ ويشرق الماء ـ الذي به زوال غُصّة الإنسان ـ من الإنسان؟!

***ـ لا شك أنها صورة بالغة العمق في المبالغة المحمودة من الشاعر، حيث صوّر الشَرِق بصورة كائن حيّ ـ على سبيل التجسيد والتشخيص ـ يريد أن يبتلع الإنسان " أبا الطيّب " فشَرِق به، فلم يَعُد الشَرِقُ هنا دمعًا بل صار كائنًا حيًّا، وهنا يلعب الخيال دوره فيحمل المبالغة على جناحيه، مكسبًا البيت صورة من الخيال الممتع.**

***ـ ويأتي قوله " شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي "جوابًا عن سؤال أثاره صدر البيت " حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا " تقديره: وماذا فعلت؟ على سبيل الاستئناف البياني الذي ساهم في تآزر المعاني وتواصل الجمل وترابطها من خلال ما أثارته الجملة الأولى من سؤال جاءت الجملة الثانية جوابًا عنه.**

القَدَرُ لا يُغالب

***ـ وهذان البيتان قد سارت بهما الركبان وتصدرا ما يزيد على ستين تعزية لابن العميد في وفاة أخته ـ رغم سعيه في إخماد ذكر أبي الطيب ـ .**

فقد ذكر بعض أصحاب ابن العميد قوله (دخلتُ عليه يومًا قبل دخول المتنبي فوجدته واجما، وكانت قد ماتت أخته عن قريب، فظننته واجدًا (حزينا) لأجلها، فقلت: لا يَحزُن الله الوزير. فما الخبر؟ قال إنه ليغيظني أمُر هذا المتنبي، واجتهادي في أن أُخمد ذكره وقد ورد عليَّ نيّف وستون كتابًا في التعزية ما منها إلّا وقد صُدّر بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

حتى إذا لم يدْع لي صدقه أمـلًا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره؟ فقُلت: القَدَرُ لا يُغالب)[1].

*** ولا شك أن أبا الطيب قد أودعا البيتين (كل ما كان قلبه يستطيع أن يحتمل من حزن ودهشة وجزع، فامتلآ روعة وجمالا... وهما نفثة المصدور وصيحة المحزون، تُنطقه بغير الصواب أحيانًا)[2].**

تَعَثَّرَتْ بهِ في الأفْوَاهِ ألْسُنُهَا وَالبُرْدُ في الطُّرْقِ وَالأقلامُ فيالكتبِ٤

المعني :

لهول خبر وفاتها وعظمه فقد تعثرت الألسن في الأفواه عن الإخبار عنه ، كذلك البرد – جمع بريد وتعثر-التي تحمل الخبر في طرقها، فضلا عن تعثر الأقلام في الكتب ، فلم تستطع كتابة خبر وفاتها ٠

***ـ والبيت جار علي سنن المبالغة الجيدة ، فلم يعد أثر الخبر مقتصرا على الشاعر بل تأثر به غيره فهذه الألسن من الأفواه- كناية عن عالم البشر – مضافا إليها البرد في الطرق وكذا الأقلام في الكتب كلها قد تعثرت وعجزت عن نقل خبر وفاة خولة فضلا عن نطقه والحديث به ٠**

***ـ وفي البيت محسن بديعي هو " الجمع " (٣) فقد جمع أبو الطيب بين الألسن والبرد والأقلام في حكم واحد هو التعثر بخبر وفاة خولة ،**

***ـ وفضلا عما يقوم عليه الجمع من الإيجاز فإنه(يبرز الشيء في هيئات مختلفة في تركيب واحد)(١) وهذا تقوية للمعني ومغايرة للعبارة ،وفيه تحريك للفكر وتشويق للنفس٠**

---

(١) الصُبح المتنبي ص١٤٦.

(٢) مع المتنبي . د. طه حسين . ٢١٢ بتصرف يسير.

٣)هو أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد – الإيضاح ٤٥/٦

***ـ وفي الجمع بجانب هذا ــ كما يذكر شيخنا د/ الشحات أبو ستيت طيب الله ثراه ــ(ربط الأسلوب وتقوية العلاقة بين مفرداته ،نظرا لأن الأشياء المجموعة متعلقة بالحكم الذي جمعت فيه،وملتحمة به،بحيث لا يمكن الفصل بينهما)(٢)**

***ـ وفي البيت كذلك النوع الثالث من المحسن البديعي " التقسيم " (٣) فقد استوفى أبو الطيب كافة أنواع خبر وفاة "خولة " فلا شئ يخرج في تبليغ الخبر عما ذكر في البيت .**

***ـ و" التقسيم " احتفى به الإمام عبد القادر حفاوة بالغة ، وقد جعله من قبيل النظم الذي يتحد في الوضع ويدق في الصنع ، وترى فيه أجزاء الكلام متحدة متداخلة ،ويشتد ارتباط ثان منها**

بأول (٤)

والنوع الثالث من التقسيم ــ كما في البيت ــ (له أثر جليل في تثبيت المعاني وتمكينها ، حيث

يحاط الشئ من كافة أقسامه ،ويحصره من جميع وجوهه فلا يبقى أمام العقل إلا أن يسلم بما

عُرض عليه ، ويفرغ لهضمه واستيعابه (٥)

---

١) الأطول – العصام ١٩٩/٢

٢) دراسات منهجية في علم البديع – د /الشحات أبو ستيت –ط–دار خفاجي – قليوبية – أولى ١٩٩٤م صـ ٢٣٤

٣) ويراد به (استيفاء أقسام الشئ بالذكر) انظر : بغية الإيضاح ـ الشيخ عبد المتعال الصعيدي ـ مكتبة الآداب ٤٢/٤

٤) دلائل الإعجاز . تحقيق محمود شاكر . ط المدني ١٩٩٢م ـ صـ ٩٣

٥) دراسات منهجية في علم البديع صـ ٢٤٥

من مآثر " خولة "

بعد أن تحدث أبو الطيب – أول القصيدة – إلى مرثية المحبوبة،ثم عرج بوصف حاله وأثر خبر

وفاتها عليه ، ينتقل هنا الحديث عن " خولة " بذكر طرف من مناقبها فيقول :

كأنّ فَعْلَةَ لم تَمْلأ مَوَاكِبُهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلم تَخْلَعْ وَلم تَهَبِ[1]

المعني :

لقد ملأت " خولة " (فعلة) ديار بكر([1]) بجيوشها ، ووهبت الأموال وخلعت ثم زال كل ذلك بموتها ، فكأنها لم تفعل منه شيئا .

***ـ وأرى أن البيت هنا شديد الارتباط بقول أبي الطيب(غدرت يا موت كم أفنيت من عدد) فالشاعر لا يزال حديثه موصولا إلى الموت فيقول له :كان لـ " خولة "من الشفاعة ما يغريك على ألا تغدر بها ،وتفجع بها من حولها، فهؤلاء المساكين وأولئك المحاويج الذين ضاعوا بموتها ، ألم يكن ذلك كافيا للشفاعة عندك ؟!**

إنك تترك آخرين لا رصيد لهم مثلما كان لـ " خولة " ألم تكن هي أولى بالترك ؟!

دعا لها الكثير بطول الحياة لامتداد نفعها ،فلماذا لا تستجب لهم ؟!

---

[1]) تقع بين الشام والعراق – انظر شرح المعري

***ـ وهذا يكشف عن جانب من فلسفة الموت وعدله وعظمته، حين لم يفرق بين أحد ــ فأبو الطيب يريد الخلوص إلى معني أنـه " لو كان في الموت شفاعة لكان أحق الناس بها خولة ٠**

***ـ وعليه فالبيت هنا موصول بحديثه إلى الموت ، وأن قوله " غدرت يا موت " ليس غريبا أو اعتراضا بين مطلع القصيدة " يا أخت خير أخ " وبين قوله بعدها بتسعة أبيات " كأن فعلة لم تملأ مواكبها " كما قد يُتوهم ٠**

***ـ ويفهم من قوله " كأن فعلة لم تملأ مواكبها " أن الصمت والحزن لفا الدنيا بفراق " خولة " ، وقديما قالوا : الحزن يُلجم ٠**

***ـوكأنه يقول : كأن مفروضا أن يملأ الدنيا ضجيج ولجب بذكر مآثر " خولة" ، لكن صمتا خيم على الجميع بسبب الحزن على " خولة "، ليس لأن الناس نسوا فضلها أو جحدوا خيرها ، إنما لأن ما أصابهم أصاب الألسن بالبكم والعيّ ؟**

***ـ ومجيء أبي الطيب هنا بوزن اسمها " فعلة " دون صريح اسمها "خولة " دليل قوي على حب أبي الطيب " خولة " فالرجل يغار عليها حية ومرثية حتي ولو بذكر صريح اسمها، فالبيت هنا تأكيد و(تقوية لقوله : أجل قدرك أن تسمي مؤبنة) ([1]) في أول القصيدة .**

***ـ وأرى أن التعبير بـ " فعلة " أنسب وأخدم للمعني من التعبير بـ " خولة " وذلك لأن رواية التصريح باسمها يأباها النص أول القصيدة٠وهذه قيمة النظرة الكلية للنص وسوء بتره، وتناوله أبياتا متناثرة متقاطعة الأوصال ٠**

***ـ كما أن التعبير بـ " فعلة " دون " خولة " يُمكّن أبا الطيب من تفويت الفرصة على المترصدين له ــ وهم كثُر ـ ومنهم أبو فراسة الحمداني ([2]) ابن خالويه ([3])، فلم يصرح باسمها حتى لا ينكشف أمر حبه " خولة "،**

---

[1]) الفسر ٢٩٩/١

[2])وقد بلغه حب المتنبي "خولة "، فكان سببا في العداوة الباغية بين الرجلين المتنبي شاكر صـ٣٤٢

[3]) راجع سبب ما جرى بينه وبين المتنبي في " الصبح المنبي " صـ ٨٧

لاسيما بعد أن غلبه بيانه في البيتين السابقين " طوي الجزيرة حتي جاءني خبر" فصرح فيهما بكل ما يضمر من الحب لخولة ــكما سبق تفصيله في موضعهما.

***ـ كما يدل تعبيره بوزن اسمها " فَعلة " على أن الرجل كان في فقه اللغة أمة ، بدليل براعته في حسن توظيف المفردة في تراكيبه، وقد ساعده في ذلك(تمكنه من أدواته الفنية وإلمامه باللغة ظاهرها وخبيئها ، حتى ليظن أنه كاشف حجابها ، ومسدل جلبابها ، أو أنه المفتض لبكارتها ، المنقض دون عذريتها يتصرف باللغة وكأنها من أملاكه الخاصة .**

قيل: إن الشيخ أبا على الفارسي قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن " فعلى " ؟فقال له في الحال: حجلي وضربي .قال الشيخ أبو علي الفارسي : فطالعت في كتب اللغة ثلاث ليال علي أن أجد لها ثالثا فلم أجد !)([1])

***ـ وعلى عادة أبي الطيب فقد حذف المتعلق هنا من " تخلع " ، "تهب " فأضفي على العبارة شمولا واتساعا .**

***ـ فضلا عن أن حذف المتعلق هنا جعل " خولة " " للخلع " و " الهبة " عنوانا ، وهما لها ديدنا وجبلة .**

وَلَم تَرُدّ حَيَاةً بَعْدَ تَوْلِيَةٍ وَلَم تُغِثْ داعِياً بالوَيلِ وَالحَرَبِ[2]

المعنى :

كانت في حياتها تردّ حياة الملهوف والمظلوم بالإغاثة والإجارة والبذل كما كانت تغيث الداعي

---

[1]) الصبح المنبي صـ١٤٣

بالويل والحرب ٠([1])

***ـ فضلا عن كون إحياء النفس الواحدة ــ بعد هلاك حتمي وتولية مقدرة ــ بمنزلة إحياء الناس جميعا ، وفي ذلك من التعظيم ما فيه ،قد أفاد التنكير في كلمة " حياة " التكثير ٠**

فللّـه درك يا خـولة ، كم نلتِ من الثواب وكم فُزتِ بالأجــر؟!

***ـ وقوله " ترد حياة " وارد على سبيل المجاز لعلاقة السببية ،وبين قوله" ترد ـ تولية " طباق طرفاه من قبيل المجاز ، خلع على العبارة فخامة وجزالة ، وشد أجزاءها عن طريق التضاد لكون الضد أسرع حضورا في الذهن عند ذكر ضده٠**

عطف ورفق وحنين

أرَى العرَاقَ طوِيلَ اللّيْلِ مُذ نُعِيَتْ فكَيفَ لَيلُ فتى الفِتيانِ في حَلَبِ[3]

المعنى:

---

[1])شرح الديوان للوا حدي

طال ليل العراق مذ أتى نعيها حزنا عليها ، فكيف ليل أخيها سيف الدولة في حلب؟! لا شك أنه أطول .

***ـ والبيت في مجمله مبالغة جيدة ،دلت على انتشار فضل خولة وذيوع خيرها في الناس،وعدم اقتصاره على عشيرتها وأهل حلب ولا أدل على هذا من طول ليل العراق مذ ورود خبر وفاتها .**

***ـوإيثار التعبير بالنعي(١)"مذ نعيت " فيه تمام المناسبة لقوله فيما سبق(حتى لم يدع لي صدقه أملا)لاشتراكهما في معنى الذيوع والشيوع ،الأمر الذي يؤكد علي أن الشاعر يختار مفرداته بمهارة ودقة .**

***ـوذِكْرُ الشاعر سيفَ الدولة هنا أمارة على صدق حبه ودليل وفائه له، وتقرير أن سيف الدولة لا يزال يحتل من قلب وحب أبي الطيب القدر الأوفى ، فلم يعد يفارقه حتى في أشد المواقف النفسية صعوبة .**

(وهل ترى أروع في تصوير العطف على الصديق والرفق به والحنين إليه من قوله :

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب)(٢)

***ـ وعلى عادة أبي الطيب - في إخراج المعنى المراد مخرج الشيوع والعموم ـ نجده هنا يحذف المفضول عليه من قوله(فتى الفتيان) مكتفيا بالصفة المشتركة بين الفاضل والمفضول عليه (وليس ذلك إلا لتسامي ممدوحه وانعدام نـدّه)(٣)**

***ـ والاستفهام في " فكيف فتى الفتيان في حلب" بما أفاده من التعجب قد كشف عن مدى محبة أبي الطيب لصديقه سيف الدولة وشفقته عليه.**

---

١) وهو إذاعة موت فلان والإخبار به وشيوعه .(لسان العرب :مادة نعي)

٢)مع المتنبي –د– طه حسين – ص – ٢١٣

٣ قصيدة الرثاء عند المتنبي (الرؤية والأداة) صـ ١٠٤

ويذهب العكبري إلى أن(هذا البيت مـا له معنى طائل وفيه سماجة)([1])

***ـ وهذا ما أخالفه فيه، فالبيت معبر عن مظهر جيد من مظاهر الصدق الأدبي في الشعر وهو(ابتعاد الشاعرعن أساليب التصوير المجازية واعتماده التقرير،وسوق الخبرعلى الحقيقة)([2])**

يَظُنّ أنّ فُؤادي غَيرُ مُلْتَهِبٍ وَأنّ دَمْعَ جُفُوني غَيرُ مُنسكِبِ

المعنى :

أيظن سيف الدولة أن فؤادي غير محترق بالحزن وأن دمعي غير منسكب على فراق خولة ؟

وروي قوله " تظن " بالتاء على أنها للخطاب، ويرى بعض الشُراح أن رواية الياء" يظن " أحسن([3])،ولعل ذلك لمناسبتها مقام الحديث إلى سيف الدولة، فضلا عن مناسبتها للجملة السابقة " فكيف ليل فتى الفتيان في حلب" في مجيئها على أسلوب الغيبة ، خاصة أن أبا الطيب لم يكن في حلب زمن وفاتها .

***ـ و أرى أن رواية التاء(تظن) أبلغ، وذلك لدلالتها على عمق المودة وقوة العلاقة بين أبي الطيب وسيف الدولة ، فالرواية هنا شاهدة على حضور سيف الدولة في وعي وقلب أبي الطيب وإن تناءت بهما الديار، فخاطبه مخاطبة**

---

١) شرح الديوان العكبري

٢)الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس د– وحيد صبحي كبابه ـ من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٩ م ـ صـ ٧٣

٣) شرح العكبري

المشاهد رأي العين ، وكأنه بجواره لحظة تشيعها ، ثم إن رواية " التاء" معبرة عن أبي الطيب يعتبر نفسه أحد أفراد عائلة سيف الدولة، واستحقاقه بذلك لأن يُعزّي فيها شأنه شأن أخيها سيف الدولة٠

***ـ وهذه عادة أبي الطيب في التعامل مع سيف الدولة ،ولعل هذا ما أورثه حسد أقرانه وغضب بعض أقارب سيف الدولة عليه(أبو فراس الحمداني) مثلا٠**

***ـ وإذا استقام هذا لي ففيه رد على العكبري الذي يرى أن هذا (ليس مليحا في حق امرأة أجنبية أن يخاطبها بمثل هذا)([1])**

***ـ وهذا مقبول على اعتبار أن الرجل يرثي امرأة شأنها شأن غيرها من النساء، وأنه هنا أتي معزيا سيف الدولة ومجاملا ٠أما حين نتذكر أنه يرثي حبيبته التي ذل لها كبرياؤه، وفُجع لفراقها فؤاده ، وأنه هنا ليس معزيا ، إنما مُعزًى ، وأن المرثية هنا ليست كغيرها من النساء في قلبه ٠٠فالأمر يختلف اختلافا عظيما ٠**

***ـ ويخص الشاعر سيف الدولة بالحديث هنا(يظن أن فؤادي) لقطع الطريق على وشاية المتربصين والحساد الذين لن يفوتوا استثمار هذه المناسبة في زيادة الفجوة بين الرجلين ٠**

***ـ والاستفهام في قوله(يظن أن فؤادي) للنفي ،وبون شاسع بين الدلالة على المعنى المراد بطريق الاستفهام المفيد للاستفهام والدلالة عليه بطريق النفي المعهود(لأن في الاستفهام تحريك للفكر،وتنبيها للعقل وحثا على النظر والتأمل)([2])**

***ـ وجاء التهاب فؤاد الشاعر وانسكاب دمعه (كناية) عن عميق حزنه وبالغ أساه، وحرقة قلبه من فراق حبه الذي وجد نفسه معه٠وقد كشفت الكناية هنا عن جريان البيت على طريق المبالغة الجيدة الصادقة فنيا .**

---

١) شرح الديوان للعكبري

٢) علم المعاني دراسة نقدية بلاغية – د – بسيوني فيود ـ مكتبة وهبة ١٤٠٦هـ ـ ١٤١/٢

***ـ وقد آثر أبو الطيب التعبير بالفؤاد في قوله " يظن أن فؤادي " دون " القلب " مثلا وذلك للمبالغة في الدلالة على عميق حزنه وشدة أسفه على فراق " خولة"**

إذ(الفؤاد أدق معني من اسم القلب٠٠ومثل الفؤاد في القلب مثل الحدقة في سواد العين ،والفؤاد في وسط القلب)(١) فضلا عن اشتقاقه من (التفؤد:أي التوقد ، والفؤاد ألطف ما في البدن)(٢) (وأشده تألما بأدنى الأذى)(٣)

***ـ ولفظة " جفوني " بعد " دمع " ليست حشوا مفسدا للمعني – كما قد يُتوهم – ذلك لأنها قد أفادت تأكيدا للمعنى المطلوب اقتضاه المقام وألـحَّ عليه، ويفوت هذا التأكيد بحذف كلمة (جفوني) على شاكلة – قوله تعالى(**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ**)(٤)**

***ـ كما جاءت لفظة " منسكب " للمبالغة في التعبير عما نزل به من أسف واكتنفه من غمّ لفراق محبوبته ، الأمر الذي جعل دمعه – لا يذرف – بل ينسكب بما تتضمنه لفظة السكب من الإفاضة(٥)، وكل هذا كاشف عن قدرة أبي الطيب اللغوية ، وتفوقه في حسن اختيارمفرداته.**

***ـ ولعل هذا ما يُلـح عليه الإمام عبد القاهرـ رحمه الله ـ عند حديثه عن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعةبقوله (... ولا جهـة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، وتختـار له اللفظ الذي**

---

١) بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب– المنسوب لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي(ت٣٢٠هـ) تحقيق : د/ احمد السايح مركز الكتاب للنشر –بالقاهرة – بدون تاريخ ـ صـ ١٤–٢٣بتصرف

٢)مفردات القرآن ٣١/٢بتصرف

٣) نظم الدرر في تناسب الآيات –البقاعي – تحقيق – عبد الرزاق مهدي غالب –دار الكتب العلمية بيروت ٥٢٧/٨

٤)سورة النحل ٢٦

٥) لسان العرب : سكب

هو أخص به ،وأكشف عنه ، وأتمّ له ، وأحرى بأن يُكسبه نُبلا ويظهر فيه مزيـة)([1])

بَلى وَحُرْمَةِ مَنْ كانَتْ مُرَاعِيَةً لِحُرْمَةِ المَجْدِ وَالقُصّادِ وَالأَدَبِ

المعنى :

ليس الأمر ـ كما يُظن ـ أني لم أتأسف على فقدها، بل تأسفت على فراقها بالغ الأسف ، وراح يؤكد هذه الدعوى ، ويدفع ما قـدَّره أنه يظنه به، بالقسم بحُرمة من كانت مراعية ما ذَكـر.

*ـوقسمه بحُرمة "خولة " هنا من أصدق البينات على عمق حبه لها ، فهي الغائب عن دنيـا الناس ، الحاضر في قلب وذهن أبي الطيب ، حتى إنـها لأسرع حضورا في الذهن ، وخطورا على البال حين أراد القَـسَم.

*ـ وبعد أن انتهى أبو الطيب من ذكر أثر خبر فراق خولـة عليه وعلى مَن حوله ، ينتقل بهذا البيت للحديث عن مناقب المرثية " خـولة "، فيمدحها بمراعاتها وصونها لحُرمة المجد والقُصـاد والأدب ، فكانت قبلة هؤلاء جميعا ، وينزلون من رعايتها المنزلة الأسمى .

*ـ وهذا يُقوي رواية إرسالها لأبي الطيب ـ حين علمت بعزمه على الرحيل ـ رسالة جـاء فيها

(أستحلفك بالله وبمجد العرب ، وبما تكنّ لأخي من مودة ألا تفعـل ، لا ترحل يا أبا الطيب ، فـإن الدولة في أشد الحاجة إليك ، أنت قلبها النابض وزندها المفتـول ،وجيشها الذي لا يُصـاول . لا ترحـل يا أبا الطيب واستمع لرجـاء

---

١) دلائل الإعجاز . صـ ٤٣

فتاة تُـقـدّر أدبك وفضلك. إن الدولـة من غير أن يتردد فيها نغم شعرك كنانة بلا سهم ، ودوحــة بـلا بـلابـل ، والسلام عليك في الخالدين)(١)

***ـ فالرسالة ناطقة بذوق " خولة " الأدبي الرفيع ورعايتها للأدب والأدباء و المجد ،وذلك كفيل باستجلاب البكاء له حين يذكرها فالشاعر هنا أحد رعاياها .**

***ـ وقد لعب أسلوب(التوشيح)(٢)في البيت دورا في تفخيم المعنى وحسن إبرازه ، كما نـهض التكرار للفظة "حـُرمة " بتأكيد المعنى وتقريره في ذهن المتلقي .**

وَمَنْ مَضَتْ غيرَ مَوْرُوثٍ خَلائِقُها وَإنْ مَضَتْ يدُها مَوْرُوثَةَ النَّشَبِ

المعنى:

لا يزال أبو الطيب يُعدد من مناقب المرثية " خـولة "في مقام بيان أثـر فراقها عليه ، فيُقـسم هنا بمن ماتت ولم تُـوَّرث أخلاقها لتفردها بهـا ، وعدم وجود من يخلفها فيها، وإنْ صارت موروثة المــال.

***ـ ورغم أن (هذا المعنى مطروق)(٣)إلا أن الاستعارة المكنية في قوله " موروث خلائقهـا" قد خلعت على المعني أبهـة ، حين أخـرجت المعنوي " الأخـلاق "في صورة الشئ المادي المحسوس الموروث ، ثم إن المجاز في**

---

١) شخصية المتنبي في آثار على الجارم النثرية ـ مجلة ميدل إيست أونلاين عدد ٢٠١٠/٤/٣٠م . أحمد فضل شبلول

٢) هو أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ،ومعناه متعلقا به ، حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره ، وبانت له قافيته)نقد الشعر لقدامة ص١٦٨
والإتقان في علوم القرآن

٣) الفَسر ٣٠٣/١

قوله " وإن مضت يدها موروثة النشب" قد ساندها في هذا البهاء ، حين أضاف النشب إلى اليـدّ ، لأن كسبه والتصرف فيه ـ غالبا ـ يقع باليـدّ

***ـ والبيت في مجمله مبالغة مقبولة ، طريقها : النفي وهو أن (يعمد الشاعر في قياسه بين طرفي الصورة إلى نفي الصفةعن أحدهما رغبة منه في المبالغة في نسبتها إلى الطرف الآخر)(١) فقد نفي عن خولة هنا وجود لها ترث أخلاقها ليثبت تفرد محبوبته بهذه الأخـلاق .**

وَهَمُّهَا فِي العُلَى وَالمَجْدِ نَاشِئَةً وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ (٢)

المعنى : -

كان همَّ خولة بلوغ العلا والمجد منذ حداثة سنها وقت كان همّ أقرانها اللهو واللعب .

وهذا البيت مثيل قول حمزة بن بيض

فهمّك فيها جسام الأمور وهمُّ لداتك أن يلعبوا (٣)

ومثيله قول البارودي

---

١)قصيدة الرثاء عند المتنبي صـ ٩٩

٢) الأَتْراب هنا الأَمْثال ـ لسان العرب (ترب)

٣)من قصيدة أنشدها حين دخل على مخلد بن يزيد المهلب في السجن جاء فيها: –

أتيناك في حاجة فاقضها وقل مرحبا يجب المرحب

بلغت لعشر مضت من سني ك كما يبلغ السيد الأشيب

فهمك فيها جسام الأمور وهم لداتك أن يلعبوا) مختصر تاريخ دمشق

سواي بتحنان الأغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويلعب (١)

وفي قول أبي الطيب " أترابها " تأثر واضح ببيان القرآن في قوله تعالى " عربا أترابا "(٢)وقد تفنن المتنبي في الربط بين أبيات قصائده ليبقي عل انسجامها واستقامتها واستعمل في ذلك روابط مختلفة منها : انتهاء البيت بمعطوف كالمترادف كقوله هنا : وهم أترابها في اللهو واللعب(٣)

***ـ وفي تعبير أبي الطيب بـ " اللهو " ،" اللعب " دلالة على تذوقه العالي ، وإدراكه الفرق بين دلالات الألفاظ التي تبدو مترادفة وليست كذلك ، فقد ذهب ابن القيم في بيان الفرق بينهما إلى أن (اللهو للقلب واللعب للجوارح قال:ولهذا يجمع بينهما)(٤)**

يَعلَمْنَ حينَ تُحَيّا حُسنَ مَبسِمِها وَلَيسَ يَعلَمُ إلاّ اللهُ بالشَنَبِ

المعني :

يرى أترابها حسن مبسمها إذا حيينها ولم يعلم إلا الله برد ريقها لأنه لم يذقه أحد .

***ـ وفي صدر البيت كناية عن صفة "الجمال والحسن " ، وفي عجزه كناية عن صفة " العفة**

---

١) مطلع قصيدة نظمها سنة١٨٦٣م ـ ديوانه ج١/٥٥ ـ تحقيق : على الجارم ـ محمد شفيق معلوف ط دار العودة . بيروت ١٩٩٨م

٢) الواقعة (٣٧)

٣) قصيدة الرثاء عند المتنبي ص ٧٨

٤) بدائع الفوائد ٣/٥٢٤

وطهارة الذيل " ولعل المتنبي هنا ناظر قول جميل بثينة هناك :

لا والذي تسجد الجباه له مالي بما دون ثوبها خبر

ولا بفيها ولا هممت به ما كان إلا الحديث والنظر(١)

*- ويأتي القصر بالنفي والاستثناء في (وليس يعلم إلا الله بالشنب)تقوية وتأكيدا على أهم ما يريد أبو الطيب إظهارها وتثبيته، وهو عفة " خولة " وصيانتها شرفها عما يدنسه وكأني به يخرس بهذا الكلام الوشاة، ويبطل سحرهم عند سيف الدولة .

*ـ وهذه التقوية آتية من إيثار أبي الطيب النفي بـ "ليس " دون غيرها فهي " لمضاعفة النفي "(٢)

*ـ فضلا عن كون النفي والاستثناء(أصل الباب ، وأقوى الطرق ، وكثير من الطرق يفيد القصر بالحمل عليه ، ولذا لا يكون غالبا إلا في المقامات العنيفة ، جهيرة النبرة قوية الوقع ، حين تتشابك إقناع العقلي ، وهذا إنما يكون في مقامات الإنكار، وليس الإنكار موقفا عقليا فحسب بل إنه رفض تتعانق فيه الطاقات الإنسانية الراقية)(٣)

*ـ وقد أخذ البعض على أبي الطيب هذا البيت لأنه ــ على حد قولهم ــ (أساء في ذكر حسن مبسم أخت ملك وليس من العادة ذكر جمال النساء في مراثيهن)(٤) وأن صناعة الشعر(لا توجب مثل هذا القول ولا هو محتاج إلى

١) مطلع قصيدة بعنوان الحب العذري ـ انظر ديوانه ط دار بيروت للنشر ١٩٨٢م

٢)أساليب القصر في القرن الكريم وأسرارها البلاغية د صباح دراز –مطبعة الأمانة بالقاهرة–أولى ١٩٨٦– ص ١٥٤

٣) السابق ص ١٦٦

٤)شرح الديوان للو احدي

مثل هذا القول امرأة ميتة ،ولو كانت محرما له فكيف، وليست له بمحرم ، ولها أخ ملك قاهر)(١)

*ـ وأورد صاحب الصبح المنبي هذا البيت ـ ضمن مآخذه على المتنبي" تحت عنوان إساءة الأدب بالأدب " ـ قائلا(وأقبح موقعا من ذلك قوله في قصيدة يرثي بها أخت سيف الدولة ويعزيه ٠٠ويذكر ما يذكره المتغزل في قوله :

يعلمن حين تحيا حسن مبسمها عنها وليس يعلم إلا الله بالشنب

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول " لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها)(٢)

*ـ ويفسر ابن جني هذا بقوله(وكان المتنبي يتجاسر في ألفاظه جدا وترى: كيف ذكر مبسمها وحسنه وشنبه ومفرقها في البيت الذي يتله ، ومن الذي كان يجسر على تلقي سيف الدولة ، يذكر هذا من أخته ، هذا وآل" حمدان " أهل الأنفة والإباء ، وأهل الحمية والامتعاض؟ وأكثر شعره يجري هذا المجري من إقدامه وتعاطيه ، ولولا جودة طبعه وصحة صنيعته ما تعرض لمثل هذا)(٣)

*ـ وأنا أرى أن أبا الطيب قد ركب مركبا صعبا من الشعر حين زاوج بين الرثاء والمدح مع المحافظة على حدود كل منهما دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، فلم يَحرم محبوبته المرثية هنا مما تتباهي به كل أنثي وتفتخر ، ولم يفقد الرثاء هيبته ووقاره ٠

*ـ كما أرى أن أبا الطيب ما شجعه على ذكر محاسن المرثية هنا إلا ما سبقت الإشارة إليه في ثنايا البحث من عدّه نفسه أحد أفراد هذه الأسرة اعتمادا على ما بينه وبين سيف الدولة من وشيج العلاقة ومتانة الصداقة واطمئنانه إلى(أن سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من المحبة الغالبة على

١)الفسر ١/ ٣٠٧ هامش ٢ والكلام للوحيد
٢)الصبح المنبي ٣٨٠
٣) الفسر ١/ ٣٠٧

أمرهما٠٠ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبوالطيب لنفسه أن يكتب هذه القصيدة إلى سيف الدولة،على كثرة الاشارات فيها إلى أمره وأمر خولة والحب الذي بينهما)(١)

مَسَرَّةٌ في قُلُوبِ الطّيبِ مَفرِقُهَا وَحَسرَةٌ في قُلوبِ البَيضِ وَاليَلَبِ[٢]

(٢)

المعني:

يسّر الطيب لاستعمالها إياه، بينما يتحسر البيض واليلب لعدم لبسهما لهما لكونهـا امـرأة ـ وهما من لوازم الرجال ـ وقد جاء التقديم في قوله (مسرة - وحسرة)(٣) لتعجيل المسرة والمساءة.

***ـ وجعل " للطيب ، للبيض واليلب " قلوبا، من باب الاستعارة المكنية ثم رشح هذه الاستعارة بوصفهما بـ " المسرة والحسرة " فأعطى هذا الترشيح المستعار له ـ البيض واليلب ـ صورة المستعار منه " الإنسان " مبالغة في وصفه .**

***ـ والاستعارة هنا سابحة في مجال التخييل الشعري المؤثر عند أبي الطيب، وقد أخرج هذا الخيال الأشياء غير العاقلة " الطيب ، البيض ، اليلب " من جمودها وعدم إحساسها إلى عالم الحس والشعور والوجدان .**

---

١)المتنبي-٣٤٢

٢) البيض :جمع بيضة وهي الخوذة من حديد ، واليلب: أمثال البيض كانت تتخذ من جلود الإبل .الصبح للمتنبي ص٣٧٣

شرح المعري ، شرح العكبري ٠

٣)مسرة خبر مقدم لمبتدأ مؤخر (مفرقها) وكذا: حسرة

***ـ ولا يخفى ما للتخييل من أثر بديع على الأسلوب ، فهو (قوام لغة الشعر ، ومدار جودتها ، فلا تحبب اللغة إلى النفس ما قصدت تحبيبه ،ولا تكره ما قصدت تكريهه إلا بحسن الخيال)(١)**

***ـ وقد جلبت الاستعارة هنا على المتنبي هجوما قاسيا من خصومه فرأوا أنه أبعد فيها ، و خرج عن حد الاستعمال والعادة حيث جعل (للطيب والبيض واليلب قلوبا ، وهذه استعارات لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من الوجوه المناسبة ، وطرق من الشبه والمقاربة)(٢)**

***ـ وقد نهض لهم القاضي الجرجاني – طيب الله مثواه – فرد عليهم اعتراضهم على أبي الطيب هنا بقوله (هذا ابن أحمر يقول : ولهت عليه كل معصفة هوجا ليس للبها زبر(٣)**

فما الفضل بين من جعل للريح لبا ، ومن جعل للطيب والبيض قلبا !

وهذا أبو رميلة يقول : هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد(٤)

وهذا الكميت يقول : ولما رأيت الدهر يقلب ظهره علي بطنه فعل الممعك بالرمل (١)

---

١)منهاج البلغاء وسراج الأدباء / حازم القرطاجني / دار الغرب الإسلامي ص٦٣وما بعدها

٢) يتيمة الدهر ٢٠١/١ ، الصبح للمتنبي ص٣٧٠تحت عنوان(ما وقع في الشعر من الركاكة والسفسفة بألفاظ العامة)

٣)الزبر :ا لرأي والقوة

٤)البيت للأشهب بن رحيلة من قصيدة جاء فيها (والذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد

أنظر الحماسة البصرية – علي بن أ بي الفرج بن الحسن البصري – ط – مكتبة الخانجي ١٩٩٩ م –ط – اولي تحقيق عادل سليمان– باب التأبين والرثاء

فهؤلاء جعلوا الدهر شخصا متكامل الأعضاء تـام الجوارح ،فكيف أنكرتَ على أبي الطيب أ ن جعل له فؤادا فلم يحـر جوابا)(٢).

***ـ ثم يوجه القاضي الجرجاني الاستعارة في البيت بقوله (فإنما يريد أن مباشرة مفرقها شرف ومجاورته زين ومفخرة ، وأن التحاسد يقع فيه ، والحسرة تقع عليه ،فلو كان الطيب ذا قلب كما لو كانت البيض ذوات قلوب لأسِفَتْ)(٣)**

إذا رَأى وَرَآهَا رَأسَ لابِسِـــهِ رَأى المَقانِـعَ أعلى منهُ في الرُّتَبِ[٧]

المعنى :

يوضح أبوالطيب هنا صورة تفصيلية لما أجمل فى عجز البيت السابق(وحسرة فى قلوب البيض واليلب) فيذكر أن البيض اذا رأى رأس لابسه ورأى المرثية تلبس المقانع أيقن أن المقانع على رأسها أعلى منزلة من البيض فازدادت حسرته على تركها لبسه بينما حازت المقانع ذاك الشرف

***ـ ولا يزال أبو الطيب يحمل أبياته على جناح "التشخيص" البديع ، فيمنح هنا "الطيبَ " من صفات العقلاء ، حيث يجعله يرى ويفكر ويحسب وينتهى الى نتيجة ـ المقانع على رأس المرثية أعلى رتبة من البيض على رأس لابسه ـ كما يفكر العقلاء.**

---

١)التمعك: التمرغ

٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي الجرجاني –تحقيق هاشم الشاذلي – ط دار إحيا التراث العربي ١٩٨٥م ص٣٨٤

٣)المصدر السابق ص٣٨٧

*ـوهذه النتيجة تحتاج مبررا وتفسيرا، لكن أبا الطيب يضمره ويطويه استفزازا للعقل وتنشيطا للفكر كى يبحث عنه ويقع عليه ،ولا ريب أن الشئ اذا جاء بعد طلب واستنهاض ليس كالشيئ يأتى فى غفلة ، فى تمكن الأول من النفس أيما تمكن ، فضلا عن احترام الشاعر لعقل متلقيه باشراكه معه فى الوصول للمعنى المراد.

وَإنْ تكنْ خُلقتْ أُنثى لقد خُلِقتْ كَرِيمَةً غَيرَ أُنثى العَقلِ وَالحَسَبِ
وَإنْ تكنْ تَغلِبُ الغَلباءُ عُنصُرَهَا فإنّ في الخَمرِ معنًى لَيسَ في العِنَبِ[٨]

المعنى :

*ـ يُفضّل أبو الطيب" خولة " هنا على جنس الإناث رغم كونها منهن ، ولما كان ذلك التفضيل مثيرا للاستغراب والدهشة وتساؤلا مفاده : كيف ذلك ؟

جاء البيت الثانى يستدل على هذه الدعوى ويبرهن على ذلك التفضيل على طريقة الاستئناف البيانى

*ـ فخولة فاقت أصلها وفيها ما ليس فيهم ، كما فاقت الخمر أصل العنب وهى منه ، فلا محلَّ للدهشة والاستغراب

*ـ ولقد وفق أبو الطيب فى مدح " خولة " هنا توفيقا بليغا ، حتى قال د/طه حسين عنه :

(ويعجبنى من وصفه الفقيدة قوله:

وان تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة كريمة غير أنثى العقل والحسب

وهو عندى خير من قوله فى أم سيف الدولة :

ولو كـان النســـاء كمـن فقـــدنا لفضـلت النســاء على الرجـــال

وما التـأنيث لاسم الشمــس عيـب ولا التذكير فضـــــــل للهـلال

ففى هذين البيتين تكلف وتأنق يخرجان التفكير عن طوره فى وقت ينبغى أن تسترسل فيه النفس مع الحزن ، والا تشغل عنه بوضع الدعاوى واقامة الأدلة عليه)(١)

***ـ وفى البيتين تشبيه ضمنى ، فالمتنبى يذكر أن خولة ـ وإن كانت من جنس الإناث ـ لكنها أرفع قدرا وأميز شأنا عن بقية أفراد جنسها.**

***ـ وكأنى به يستشعر استغراب ادعائه فذهب محتجا لزعمه بأن الخمر وهى الفرع ـ قد فاقت العنب ـ وهو الأصل ، فأزال غرابة دعواه وأنزلها من المتلقى لها منزلة القبول والاستحسان ،**

***ـ وذلك بإخراج الكلام فى صورة التشبيه محجوب الملامح وإطار لا تستشف معالمه إلا عيون خبيرة بالتقاط الخفايا، وفى هذا المذهب من نسيج الكلام دعوة الى إنعام النظر وإعمال الفكر.**

***ـ وتعبيره بـ(إن) الشرطية هنا أبلغ من(إذا) الشرطية لكونها أدخل فى المراد(لأنه يريد أن يثبت أنها إن كانت أنثى باسمها ونوعها إلا أنها غير أنثى بعقلها وكرمها،هذا فى البيت الأول. وفى البيت الثانى : يحتج لغلبة الفروع على الأصول وتفوقها عليها ، ولذلك عبر بـ "إن" فإذا كانت تتفوق على بنى جنسها تفوقا ملحوظا فإن لها فى الخمر مثيلاً ونظيراً، إذ أنها مأخوذة من عصير العنب ومع أنها كذلك الا أنها غلبت أصولها وتفوقت.**

ولأن القضية قضية احتجاج لغلبة الفروع على أصولها ، دخلت " إنْ " الشرطية لتفيد أن هذا ليس كثيرا ولا مطردا)(١)

---

(١) مع المتنبى صـ ٢١٣

***ـ وقد شاع معنى تفضيل البعض على كُلـّه والاحتجاج له فى شعر أبى الطيب ، حتى قال بعضهم (إن هذا معنى قد اخترعه المتنبى فأحسن غاية الإحسان)(٢)**

***ـ ومن شواهده عنده قوله فى رثاء أم سيف الدولة :**

ولو كـان النســـاء كمـن فقـــدنا لفُضـلت النســاء على الـرجـــال

وما التـأنيث لاسم الشمـس عيـب ولا التذكير فضـــــــل للهـلال (٣)

وقوله ـ وهو من قلائده (٤) فى سيف الدولة :

فإن تُفق الأنـــام وأنت منـــــهم فـإن المسـك بعض دم الغـــزال(٥)

***ـ وكأني بأبى الطيب يرى نفسه فى هذا البيت ، على نحو قوله ـ فيما سبق عن نفسه :**

لا بقومى شّرفت بل شرفوا بى وبنـفسى فخـــرتُ لا بجـــدودى

***ـ وقد تأثر بهذا المعنى الذى اخترعه أبو الطيب كثير من الشعراء فنسجوا على منواله ، ولأبى الطيب فيه فضل السبق ، ومن هذه الشواهد قول أبى الفـتح على بن محمد البسـتى :**

---

١) التصوير البياني في شعر المتنبي ٢١٧

٢) يتيمة الدهر ١٦٢

٣) ديوانه ـ من قصيدة (يُدّفن بعضنا بعضا) ومطلعها: نعدّ المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

٤) يتيمة الدهر ١٦٢

٥) ديوانه ـ من قصيدة (يُدّفن بعضنا بعضا)

أبـوك حوى العلـــــيا وأنت مُبَّرز علـيه إذا نـازعته قصبَ المجـــد

وللخمر معنى ليـس فى الكرم مثله وفى النارنور ليس يوجد فى الزند(١)

*ـ وبيتا المتنبى هنا يلفتان النظر إلى ظاهرة فى رثائه ـ خاصة لآل سيف الدولة ـ وهى :

(اصطباغ الرثاء بصبغة المدح حتى ليكاد وهو الظاهر على المرثية ، ولولا معرفتك مسبقا بمناسبة القصيدة لظننت أنها فى المدح ...والملاحظ أنه عندما يرثى أم سيف الدولة أو أخته إنه ليبلغهما فى المدح منزلة الرجال ويخلع عليهما صفات العظماء الذين شربوا المعرفة وأترعوا الحكمة)(٢)

فَلَيْتَ طالِعَةَ الشَّمْسَينِ غائِبَةٌ وَلَيتَ غائِبَةَ الشَّمْسَينِ لم تَغِبِ١

وَلَيْتَ عَينَ التي آبَ النَّهارُ بِهَا فِداءُ عَينِ التي زَالَتْ وَلم تَؤُبِ٢

المعنى :

*ـ يتمنى أبـو الطيب ان تكـون شمـس النـــهار الطالــعة هى الغائــبة والمرثـية ، وأن تكـون "خولة " ـ المرثية ـ هى الشمـس الطالعة التى لم تغـب ولم تـفـقـد، فطالعة الشمـسين هنــا هى " شمس الدنيا " وغائـبـتها هى " خولة " .

١) يتيمة الدهر ١٦٢

٢) قصيدة الرثاء عند المتنبى صـ ١٣٣

***ـ ويبالغ الرجل فى تمنيه ويَودّه واقعاً تحت تأثير الرزء الشديد وعظم فجيعته فى محبوبته فيتمنى لو كانت عين شمس النهار فداءً لعين التى غابت وفُقدت " خولة " .**

***ـ وما يتمناه أبو الطيب هنا جار فى عالم المستحيل وليس إليه سبيل و(لكنه الإحساس الطاغى بضخامة الثكل والمشاعر الرازحة تحت وطأة الرزء يتملكان نفس الشاعر الملتاعة الحزينة ويستبدان بها ويسيطران عليها ، فتنفلت مارقة من إطار الواقع الذى يمكن إلى إطار آخر من أطر المستحيل تهتف به وتعشقه وترغبه ، وتتمناه هى بسبحها فى هذا الأفق ... وهكذا يعيش الشاعر فى عالم الأوهام والمستحيلات يتمنى تحقيق ما لا يمكن تحت وقع إحساسه بثقل المصيبة وفداحة الكارثة)(١)**

***ـ وتتزاحم الصور البلاغية فى البيتين ، فنرى الاستعارة التصريحية تتعاقب من خلال (المقابلة الدقيقة التى تعكس يقظة فكر الشاعر)(٢) وذلك فى قوله " طالعة الشمسين... غائبة الشمسين" فالشمس الأولى حقيقة والثانية مجاز طريقه الاستعارة التصريحية (التى تعكس احساسا ً بأنها كان يمكن أن تشرق الدنيًا ببهجتها،فيستغنى بها عن الشمس الحقيقية)(٣)**

***ـ وكذا فى البيت الثانى حين يستعير لفظة " عين " للشمس على سبيل الاستعارة (لا لشيئٍ فيما يبدو سوى أن يجانس لفظ "عين "فى الشطر الثانى والذى قصد به المرثية)(٤)**

***ـ ويأتى الطباق البديع بهذا التفنن فى الصياغة(طالعة ،غائبة)(غائبة ، لم تغب)(آب ، لم تؤب) متضامنا مع بقية الأساليب البلاغية فى البيتين بسلاسته وعدم تكلفه فيزيد الكلام حسنا والمعنى فخامة.**

---

١) التصوير البيانى فى شعر المتنبى ص ٢٠٦

٢) التصوير البيانى فى شعر المتنبى صـ ٤٤١

٣)السابق

٤) السابق

***ـ ويأخذ د/ طه حسين على الناس إعجابهما بهذين البيتين بقوله(وقد يعجب الناس إعجابا شديدا بهذين البيتين، ولكنى أراهما كلاما من كلام الشعراء ، ولعل مصدر الإعجاب بهما جمال اللفظ ليس غير)(١)**

***ـولو لم يكن لأبى الطيب هنا إلا اخراج هذا المعنى المكرور ـ كما يقول د/طه ـ فى هذه الصياغة الرائقة التى كست المعنى أبَّهةً وجددت شبابه ، لكفاه .**

***ـ والبيتان كاشفان عن عاطفة حارة وشعور صادق لا يخطئهما بصر.**

فَمَا تَقَلَّدَ بالياقُوتِ مُشْبِهُهَا وَلا تَقَلَّدَ بالهِنْدِيَّةِ القُضُبِ[٣]

المعنى :

ليس لخولة شبيه ممن يتقلدن بالحلى " النساء " ولا ممن يتقلدن السيوف " الرجال ".

والبيت أدخل فى المبالغة الحسنة من نحو قوله مثلا :

وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة كريمة غير أنثى العقل والحسب

لأن هنا ذِكْر لكونها أحد جنس الإناث وإن تفوقت على بقية جنسها

***ـ أما فى قوله هنا " فما تقلد بالياقوت ... " فقد ترقى بالمعنى حتى وصل به عن طريق المبالغة ـ الى منتهاه ، ففضلها على جنس البشر.**

***ـ وجاء التكرار هنا (تقلَّد)عن طريق النفى للفعل(وفى ذلك زيادة فى الأسى والدهشة والنفى والمبالغة التى يريد الشاعر إيصالها للمستمع عن طريق الصوت الذى لا يبلغ مداه إلا فى تكرار النفى وزيادة الأسى)(٢)**

---

١)مع المتنبى ص ٢١٣

٢) قصيدة الرثاء عند المتنبى صـ ١٠٣

***ـ وقد يُظنُّ أن هذا البيت فى غير موضعه من ترتيب القصيدة ، وأن مكانه المناسب بعد بيت " وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها " لضمان تواصل معانى مدح المرثية، ثم بعد الفراغ منها يأتى التمنى والتحسر و..... فى قوله " فليت طالعة الشمسين غائبة "**

***ـ وبإمعان النظر نجد البيت بترتيبه هنا فى حاق موضعه ، وذلك لأنه بمثابة الجواب عن سؤال أثاره البيت السابق : " فياليت طالعة الشمسين غائبة " تقديره : ما سبب هذا كله ؟ فجاء الجواب: " فما تقلد بالياقوت مشبهها ..." جوابا ً عن هذا السؤال.**

وَلا ذكَرْتُ جَميلاً مِنْ صَنائِعِهَا إلاّ بَكَيْتُ وَلا وُدٌّ بلا سَبَبِ

المعنى :

***ـ لم يكن بكائى لودٍ وسبب إلا لصنائعها التى قد أولتْ، وأفعالها التى لم توجد من بعدها فهى تذكّرنى فأبكى .**

***ـ ويظل أبو الطيب يحمل معانيه على جناح المبالغة ، مستخدما ً طريق القصر بالنفى والاستثناء(ولا ذكرت جميلاً .. إلاً بكيت)هكذا بالاستغراق والإحصاء ، فيضفى على عباراته الشمول والإحاطة .**

***ـ فما من جميل من صنائع ألا ويحرض على بكائها والتحسر على فقدها لا يستثنى منها جميل ولا صنيع ، أىّ نفسٍ هذه وأى أخلاق تلك التى تحلت بها خولة ! حتى صار كل فعل لها أمارة إحسان وأسرٍ لقلوب الناس ، فحُق لهذه القلوب أن تبكيها دما ولله درّ القائل :**

أحسنْ إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما ملك الإنسان إحسانُ(١)

*ـ ويأتى قوله (ولا ودَّ بلا سبب)تقوية لهذا المعنى(وكل أحد إذا ودّ غيره فإنما يوده بسبب)(٢) وفى هذا البيت شاهد صدق على حب أبى الطيب خولة لأنه (ما نظن أن صنائع " خولة " عنده كانت معشار صنائع سيف الدولة ولكن حب ً أبى الطيب هو الذى جعل صنائعها من قلبه بهذه المنزلة)(٣)

*ـوهناك رواية أخرى بلفظ (بلا ودٍ ولا سبب)(٤) وأراها أبلغ من الأولى لأن فيها "احتراس" يعين الشاعر على(نفى أمر بعينه ، كان الوشاة يكثرون القول عند سيف الدولة مع علمه بالأمر الذى بينهما ، من أن صنائع "خولة " التى كانت تتخذها عند أبى الطيب لم تكن من أجل هذا الودَّ ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب عنصرها ، ويكون المقصود بهذه الرواية غيرٌ سيف الدولة ، ممن كان يتزيد فى القول ويتكذب عليه بما هو منه براء ، ولينفى التهم بذلك عن هذه التي كان يحبها ويمنحها قلبه)(٥) .

قَد كانَ كلّ حِجابٍ دونَ رُؤيَتِها فَمَا قَنِعتِ لها يا أرْضُ بالحُجُبِ
وَلا رَأيْتِ عُيُونَ الإنْسِ تُدْرِكُها فَهَلْ حَسَدْتِ عَلَيها أعينَ الشُّهُبِ
وَهَلْ سَمِعتِ سَلاماً لي ألمّ بهَا فقَدْ أطَلْتُ وَما سَلّمتُ من كَثَبِ

---

١) من قصيدة مطلعها " زيادة المرء في دنياه نقصان " انظر ديوانه/ ت : درية الخطيب ـ لطفي الصقال ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق١٩٨٩م

٢) شرح المعرى على الديوان

٣) المتنبى . شاكر. صـ ٣٤٢

٤) الفسر ٣١٣/١ ، المتنبى صـ ٣٤٢

٥) المتنبى صـ ٣٤٢

المعنى :

كانت خوله محجوبة عن العيون بكل حجاب ، فلم ترض الأرض إلا أن تكون هي التي تحجبها بنفسها،

و يخاطب الأرض:ما رأيتِ إنسا يراها فهل حسدتِ أعين الكواكب علي رؤيتها فحجبتها أنتِ ؟؟

***ـ ثم يسأل الأرض: لقد أطلتُ السلام عليها و أنا بعيد منها ، فهل وصلها سلامي وهي في بطنك ؟؟**

***ـ وعلي عادة أبي الطيب في إضفاء معني الشمول والاستغراق علي عباراته يأتي التعبير بالكلية(كل حجاب دون رويتها) .**

***ثم يأتي البيت كله كناية عن صفة وهي " المبالغة في وصف خولة بالصيانة و الاستتار "**

*** ويكسو أبوالطيب العبارة جزالة و فخامة ، حين نفخ في الأرض الروح ، فصارت كائناً حياً يتأتى منها : القناعة،الرؤية، الحسد والسماع . تشبيهاً لها بما يتأتى منه ذالك علي طريق الاستعاره المكنية المتعاقبة(والتي لا تخلو ابداً من تخييل أن الأرض قد دبت فيها الحياة فاختطفتها و حجبتها وكان منها ما كان ، وبهذا نرى تعاقب الاستعارة المكنية علي نحو يعكس ذهاب خيال الشاعر كل مذهب، و قد صاغ تصويره المتتابع صياغة تجعلك تعيش التجربة ، فالاستعارات قد وردت في سياق الخبر المنفي تارة و الاستفهام تارة أخرى)([1])**

***ـ و قد أبانت الاستعارة هنا عن أقصى درجات انفعال الشاعر و تفاعله مع ما حوله .**

***ـ ويُبدع أبي الطيب المتنبي مثبتاً امتلاكه ذوقاً عالياً في توظيف مفردات اللغه فيزاوج بين جمعي الكثرة و القلة للفظة واحدة " عيون– أعين " في بيت واحد مستعملاً جمع الكثرة" عيون" في جانب الإنس "عيون الإنس" لكون**

---

[1]) التصوير البياني في شعر المتنبي ٤٣٨

الوصف هنا بالكثرة أخدم للسياق وأدخل في وصف" خولة" بالصيانة والحشمة والعفاف ، فعيون الإنس – على كثرتها – لم تظفر منها بنظرة .

***ـ فاجتمعت الأبيات هنا على تقرير أن خولة علي حياة عينها لم تكن مبتذلة أو تراها العيون.**

فأي عفة هذه ، و أي حشمة تلك ؟!

***ـ وهذا التمنع والإحتشام من " خولة " سبيل لبناتنا، أحري بهن أن يسلكنه حفاظا علي حياء المجتمع و طهره و عفافه .**

***ـ و يأتي قوله (فهل حسدت عليها أعين الشهب)علي سبيل الاستفهام المجازي المفيد للتعجب والإنكار.**

بينما يأتي استفهامه(وهل سمعت سلاما لي ألم بها؟)علي سبيل التمني الكاشف عن شدة حنين أبي الطيب إلي " خولة " لاسيما و قد أفضتْ و هو غريب الدار ..

***ـ و يذهب صاحب الصبح المنبي إلي تفضيل المتنبي بهذه الأبيات علي سابقيه وعلي المحدثين(... و إن كان النظر إنما هو في الألفاظ و المعاني فلو عاش إمرؤ القيس، ثم مات ، ثم عاش ، لما أداه فكره إلي تدقيق النظر في هذا المعني الذي أورده المتنبي في هذه الأبيات ، على أني ما تركت ديوان فحل من فحول الشعراء حتي طالعته ، و حفظت منه شيئاً ، فلم أجد لأحد فيهم في مراثي الناس ما يقرب من هذه الأبيات للمتنبي و كذالك يجري الحكم في المحدثين ، فإنهم لم يأتوا بمثلها ولا حتي بما يقرب منها)([1])**

وَكَيْفَ يَبْلُغُ مَوْتَانَا الَّتِي دُفِنَتْ وَقد يُقَصِّرُ عَن أحيائِنَا الغَيَبُ

---

(١) الصبح المنبي ، صـ ٤١٠

المعنى :

بعد تعلق نفس أبي الطيب المتنبي بالتمني في قوله " و هل سمعت سلاماً لي ألم بها ؟ " ، و ذهابها فيه كل مذهب ، فاق الرجل وانتبه فانقلب إلي نفسه ليسألها.. كيف يبلغ السلام الموتي المدفونين وهو يقصر عن الأحياء الغيب .. فالاستفهام هنا للاستبعاد .

***ـى و الاستفهام في الأبيات الثلاثة الأخيرة كاشفة عن اضطراب نفس أبي الطيب ومشاعره ، و دالة علي الدفقات الحزينة التي انطوي عليها قلبه، فعليها أثر بالغ من حزنه و أسفه .**

- **و ذهب البعض إلي أن في قوله " و قد يقصر عن أحيائنا الغيب " تعريضا بسيف الدولة ،(فإنه يقصر سلامه دونه)([1]).**

ورد ابن فورجه هذا الرأي (وقال : هذا على العموم ، أي أن السلام قد يقصر علي الحي الغائب ، فكيف عن الميت ؟! و ليس في الكلام ما يدل علي التعريض بسيف الدولة)([2])

يا أحسَنَ الصّبرِ زُرْ أوْلى القُلُوبِ بهَا وَقُلْ لصاحِبِهِ يا أنْفَعَ السُّحُبِ

وَأكْرَمَ النّاسِ لا مُسْتَثْنِياً أحَداً منَ الكِرامِ سوَى آبَائِكَ النُّجُبِ

المعنى :

يا أحسن الصبر زُرْ قلبَ سيف الدولة فهو أولي القلوب بأخته المرثية " خولة "، و قُلْ لصاحب هذا القلب : يا أنفع السحب .

---

(١)شرح الواحدي ، شرح المعري ٥٧٣/٣، شرح العكبري

(٢) السابق

و قل لهـ كذالك - : يا أكرم الناس دون استثناء إلا لآبائك الكرام الذين أنت أحد غراسهم الكريمة" ذرية بعضها من بعض " .

***ـ وابتداء من هذا البيت نلاحظ توجه الحديث إلي سيف الدولة صراحةً ـ بعد أن كان غير مباشر ـ و في ذالك دلالة علي صدق محبة أبي الطيب له ، وأمارة علي سيطرة سيف الدولة علي وعيّ وقلب أبي الطيب ، حتي و هو يمر بهذه الحاله النفسية بالغة الأسي ، عميقة الحزن .**

***ـ وكـأن وعي أبي الطيب و قلبه الكبير لم يعد ينطوي إلا علي " خولة " ، و أخيها " سيف الدولة "**

وهذا لعمري دليل وفاء و شاهد حب هـزّ أركان الرجل .

***ـ و يضم أبو الطيب شاهداً آخر علي صدق محبته سيف الدولة، وهو: إيثاره التعبير بأفعل التفضيل هنا (أحسن – أولي – أكرم – أنفع) ، فالشاعر لا يسأل صبراً عادياً لسيف الدولة، إنما يسأل له أحسن الصبر، عونًا له علي فراق أخته ، و لاشك أن فقدها عنده أعظم الفقد ، لكونه أولى القلوب بها ، الأمر الذي يحتاج معه إلي أحسن الصبر وأجمله .**

***ـ و لما كان من السحاب(ما يُؤذي سيله وتهلك صواعقه و برده)([1]) كما قال أبو تمام :**

في الروض قراص وفي سبيل الربى صواعق ([2])	**كدر وفي بعض الغيوث**

جاءت أبلغية التعبير بـ(أحسن السحب) احتراساً و دفعاً لتوهم غير المراد .

---

(١)شرح العكبري

(٤)الفسر٢/٣١٦

*ـ وخطاب الشاعر الصبر هنا و طلبه منه زياره قلب سف الدولة جار علي خطابه " الأرض " آنـفـاً و خطاب الموت سابقاً بقوله " غدرت يا موت ، علي سبيل الاستعارة المكنية .

*ـ وهذا النمط من الكلام " خطاب ما لا يعقل " في كلام أبي الطيب يُـغري أن يُفـرَد بدراسة ناضجة تطيل معه النَـفَس .و أساله تعالي أن يمنحنا من توفيقه و أن يعين على إخراجها .

*ـ و يمكن لقائل أن يسأل : لماذا لم يبتدئ الشاعر رثاءه " خولة " بهذا البيت ، إقتفاءً لأثر الشعراء في التوجه بالتعزية أولاً إلي أهل المرثي ، ثم يأتي الحديث عن المرثي نفسه لاحقاً ؟!

و الجواب – كما سبق ذكره – أن أبا الطيب المتنبي هنا ثكلي ، فهو يعزي نفسه قبل تعزية أمير أو صديق في أخته ، ثم هو يري نفسه أحد أفراد أسرتها فتجب عليه تعزيته فيها ، لكل هذا ابتدأ رثاءه بالتوجه بالحديث إلي محبوبته المرثية، خـاطـاً بذالك منهجاً جديداً في الرثاء، وهو" التوجه بالحديث إلي المرثي " لاسيما إذا كان امـرأة .

قد كان قاسَمَكَ الشخصين دهرُهُما ... وعاش دُرُّهما المَفـدىُّ بالذَّهب

وعاد فى طلب المتروك تاركُه[٣] ... إنّا لنغفُل والأيّامُ فى الطَّلب

ما كان أقصر وقتاً كان بينهما ! ... كأنه الوقت بين الوِرْدِ والقَرَب

المعني :

يريد أن الموت قاسم سيفَ الدولة أختيه " الشخصين " فأخذ الصغري " المشبهة الذهب " تاركاً الكبري " المشبه' الدُرّ " .

***ـ ثم عاد الموت طالباً المتروكة " خولة " ، و شأن الناس الغفلة عن الموت و هو يطلبهم ، حتي يأتيهم فجأة ، فينقلهم من علي وجه الأرض إلي بطن التُـرب .**

و ما بين رحيل الأختين كما بين القرب و الورد من قصر الموت .

***ـ و في تشبيه الأخت الصغرى بالذهب، و تشبيه الكبرى بالـدُر استعارة، حيث استعار لهما الذهب والدر، ثم طواهما من العبارة مقيماً الذهب و الدر مكانهما ، مبالغة في البياض و الحسن و النفاسة و كرم الأصل ،فكست الاستعارةُ البيتَ خلابةً ورونقاً ..**

***ـ كذالك فعلت في البيت الثاني " وعاد في طلب المتروك تاركه " حين صورت الموت ساعياً و طالباً تدب فيه الحياة علي سبيل التشخيص.**

*** ثم يأتي جناس القلب بين " دهرهما ــ دُرهما " مطبوعاً غير مصنوع ، و قد اقتضاه هذا المعني ، فاكتسب حســـنـــــاً**

و كما يقول الإمام عبد القاهر(ومن هاهنا كان أحـلي تجنيس تسمعه وأعلاه و أحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلي اجتلابه، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملائمته ــ و إن كان مطلوباً ــ بهذه المنزلة و هذه الصورة)([1]) .

***ـ ثم يأتي تشبيهه " كأنه الوقت بين الورد و القرب " لبيان مقدار قصر الوقت بين فقد الأختيين ، وأثر ذلك من تعاقب الفجعات و توالي الأحزان علي سيف الدولة**

***ـ و تحسر أبي الطيب المتنبي و حزنه هنا لا يعني اعتقاده بالخلود وعدم اعترافه بالموت ، أو أن الرجل انتهى(بهذه القصيدة إلي فلسفة مظلمة حزينة أقل ما يقال فيها أنها تصور شكه في خلود النفس ، و انحرافه بهذا الشك عن**

---

١) أسرار البلاغه – عبد القاهر الجرجاني – تحقيق : محمود شاكر– ط المدني ١٩٩٢ – صـ٤١

طريق المسلمين ، وإحساسه التعب من هذا الشك و الارتياب)([1]) فهذا إدعاء يرده قول المتنبي " إنا لنغفل و الأيام في الطلب ".

فمنشأ التأسف و التحسر هنا ليس الموت حقيقة ، بل قصرما بين موت الأختين من وقت ، وتسارع المصائب إلي سيف الدولة ، فالموت لا يمهله في التمتع بأخته الكبرى بعد أن فجعه في أخته الصغرى .

***ـ و قوله " إنا لنغفل و الأيام في الطلب " يُعدّ من أحسن الكلام و أوعظه، و هو كثير في الكلام ([2])**

***ـ و لقد لقي هذا البيت شهرة وصيتاً أغرت الشعراء علي محاكاته، فالصاحب بن عباد لم يمنعه كرهه لأبي الطيب و تربصه به ، أن يتأثر به في هذا البيت و يقول :**

نحن بنو الموتي فما بالنا	نعاف من لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا	علي زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه	و هذه الأجسام من تربة

***ـ وهذا غيض من فيض مما اغترفه الصاحب من بحر المتنبي ، وتمثل به من شعره ([3]).**

***ـ ويلاحظ في أبيات الدراسة هنا أن الحديث يتجه به أبو الطيب المتنبي إلي سيف الدولة كفاحاً بعد أن كان مبثوثاً بين الحديث إلي خولة وعنها .**

***ـ وفي هذا دلالة قوية أخرى على مكانة سيف الدولة في قلب أبي الطيب المتنبي ، وصِدْق ارتباط الأخير به .**

---

[1]) مع المتنبي – د طه حسين ـ صـ ٢١٣

[2]) شرح العكبري

[3]) يتيمه الدهر – ١٥٦ عند حديث الثعالبي عمن تأثر بشعر ومعاني أبي الطيب

جزاكَ ربك بالأحزان مغفرة ... فإنّ حزن أبي حُزنٍ[٤] أخو الغضب

وأنتمُ نَفَرٌ[١] تسخو نفوسُكمُ ... بما يَهِن ولا يسخُون بالسَّلَب

حَلَلتمو من ملوك الناس كلِّهم[٢] ... محَلَّ سُمر القنا من سائر القَصب

المعني :

جزاك الله مغفرةً بهذا الحزن الذي أصابك ، و الحُزن مما يستغفر منه ، لقول الله تعالى(لكي لا تحزنوا علي ما فاتكم ولا ما أصابكم)(١) .

فالإنسان إذا حزن علي مصيبة تصيبه فكأنه يغضب علي القدر المقدور ، والغضب علي المقدور مما يُستغفر منه.

***ـ و أنتم جماعة تسخو نفوسكم بما تهبون عن طيب نفس ، و لا تسخو بما يُسلب منكم قهراً.**

***ـ وفضْلُكم على سائر ملوك الأرض كفضل الرماح علي ماعداها ،و في نسبة الجزاء إلي لفظ " الرب " المضاف إلي ضمير الخطاب، ثم التنكير في " مغفرة " المفيد للتعظيم ما يخلع علي العبارة فخامةً وهيبةً تليق بالطلب لمقام سيف الدولة عند أبي الطيب خاصةً.**

***ـ ثم يلتمس أبوالطيب المبررَ لسيف الدولة فيما نزل به من حزن ، بكونه من جماعة تطيب نفوسهم و تسخو بما وهبت طواعية ، و لا تطيب بما أُخِذ منها قهراً ،فالبيت قائم علي(حسن التعليل)الذي اكتسب بلاغته ومزيته هنا من**

١) سورة آل عمران ١٥٣

تضمنه صدق الإحساس وانطواء الكلام علي علة طريفة و فائدة شريفة علي حد قول الإمام عبد القاهر:

(... هذا لا يقبل و لا يكون حتي ما يكون في استئناف العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير في الذم ... و الصنعة إنما يمتد باعها ، و ينشر شعاعها ، و يتسع ميدانها ، و تتفرع أفنانها حيث تعتمد الاتساع والتخييل ، و يدعي الحقيقة فيما أصله التقريب و التمثيل ، و حيث يقصد التلطف و التأويل ، و يذهب بالقول مذهب المبالغة في سائر المقاصد و الأغراض ، و هناك يجد الشاعر سبيلاً إلي أن يبدع و يزيد و يبدئ في اختيار الصور و يعيد ... و يكون كالمُغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهي)([1]) .

***ـ ثم يأتي طباق السلب – و هو طباق لفظي – في قوله " تسخو – لايسخون " ، ثم الطباق المعنوي في قوله " يهبن – السلب " و ذلك لتأكيد مدح أبي الطيب سيف الدولة وجماعته بسخاوة نفوسهم ، و كمال عزتهم التي لا تقبل الضيم ، فيكتسي التعبير بهذا التغاير بين الطباق و التفنن في الأسلوب طلاوةً و بهاءً .**

***ـ و يتأزر التكرار الاسمي في قوله " الأحزان ، حزن " مع بقية الصور البلاغية في البيت للمبالغة في التسرية عن سيف الدولة ، وتعليل حزنه الذي سأل الله له مغفرته ، فلو كان حزن واحد لهان ، لكن العبارة بتكرير مادة " الحزن " جعلته أحزاناً كثيرة ، فلسيف الدولة بالغ العذر.**

***ـ وهذا معني بالغ الجودة في أمر الحزن ، لكنه أيضاً مقصر في باب المدح لكونه(لم يرفع الممدوح عن الحزن ، ويجعله ممن لا يستمر عليه الحزن لجلده و قوه نفسه ، و هذا في باب المدح تقصير)([2]) .**

---

[1]) أسرار البلاغة – عبد القاهر – تحقيق محمود شاكر – مطبعه المدني . صـ٢٧٢

[2]) الفسر ٣١٨/١– هامش ٨

فكنا ننتظر من أبي الطيب ــ بعد اجتهاده في التماس العذر لحزن سيف الدولة ــ أن يمدحه ويُذكّره بما يُعينه علي تجاوز هذه الأحزان وكسر طوقها الذي فرضته عليه ، لكن الرجل لم يفعل !

***ـ و لو قال أبو الطيب المتنبي " تسخو نفوسهم " بدلاً من " نفوسكم " لكان أقوى في الإعراب ، و نفوسكم بالكاف أمدح لأن فيه لفظ الخطاب فهو أخص ([1]) .**

والتخصيص المفاد من رواية الخطاب هنا (نفوسكم) مفيد للمبالغة في مدح جماعة سيف الدولة ، و كذا وردت رواية أخرى بلفظ الخطاب في قوله(و لا تسخون)،و لكن رواية الياء(يسخون)– التي عليها التحليل هنا- أبلغ و (أجود الوجهين لأنه يعود إلي النفوس و رواية التاء وجه جيد وتكون

(تسخون) مخاطبة للمدوحين) ([2]) .

و يأتي التوكيد المعنوي في البيت الثالث " حللتم من ملوك الأرض كلهم " ليضفي علي العبارة معاني الشمول و الإحاطة ، مبالغةً منه في تفضيل آل سيف الدولة علي ملوك الناس قاطبة لا يشذّ منهم أحد .

و في البيت تشبيه" ضمني " يُفهم من فحوى العبارة و يلمح من السياق ، حين فضلهم على ملوك الأرض كلهم ،و كأنما استشعر أبو الطيب دهشةً و استغراباً لهذا الادعاء، فاستدرك مستدلاً علي صدق إدعائه ، بأن الرماح تفضل كل ما سواها من القصب، فأخرج المعنى مخرج الدعوى ببينة، فاستقر في النفس أيما استقرار، و في مجئ المعنى على هذا النمط من التشبيه طرافةً و جدة ، لمجيئه من وراء ساتر رقيق من العبارة فيتراءى من ورائه كما تتراءى المرأة من وراء ساتر رقيق .

*** ـ وشتان بين مجيئه هكذا و بين مجيئه كفاحاً سافراً ؟!**

---

[1]) السابق ١/ ٣٢٠

[2]) الفسر ٣١٩/١

و نلاحظ في البيتين الأخريين ذكرَ آل سيف الدولة و جماعته في سياق مدح سيف الدولة ذاته ، بعد أن ذكرهما لمحاً في مطلع القصيدة في سياق مدحه " خولة " ، في قوله :

يا أخت خير أخ يا بنت خير	كناية بهما عن أشرف النسب

طبيعة الدنيـا

فلا تَنَلْكَ[٣] اللَّيـالى إنَّ أيديَهـا ... إذا ضربن كسرن النّبع بالغَرَب

ولا يُعِنّ[٤] عـدوًا أنت قاهِرُه ... فإنّهُنّ يصِـدن الصّقر بالخَرَب[١]

وإن سَرَرْنَ بمحبوب ، فَجَعن به ... وقد أتينَك فى الحالين بالعجب

(١)

المعني :

يدعو أبو الطيب لسيف الدولة بألا تُصيبه حوادث الليالي ، وكان ذلك الدعاء مثير تساؤل : لماذا؟

ـ فجاء قوله " إن أيديها إذا ضربت كسرت القويّ " النبع " بالضعيف " الغرب " جوابا عنه على سبيل الاستئناف البياني .

ـ ثم يجعل أبو الطيب لليالي " أيدي " كالإنسان ، تضرب بها وتصطاد وتُعين مَن تشاء على من تشاء، ثم جعلها تأتي بالأفعال العجاب ـ كما في

[١]) النبع : شجر صلب ، الغرب : نبت ضعيف. ،الخرب : ذكر الحُبارى وجمعه : خربان.

البيت الثالث ـ على سبيل الاستعارة المكنية ، للمبالغة في وصف آثار حوادث الدهر وصروف الليالي ، فكست الأسلوبَ جمالا والمعنى جـودة .

***ـ وفـي البيت الثـاني: يـدعو ألا تُعين الليـالي عدوا مقهــورا فـي يـدّ سيف الدولة ، ذليلا في جنبـه، فـإنهـا إذا أرادت صيد الصقر ـ مع قوتـه ـ بالخــرب لفعلت.**

***ـ وتربط فـاء التعليل في قوله " فإنهن يصـدن " ما بعدهـا بما قبلهـا ارتباطا وثيقا ، لأنهـا تنزله منزلة العلّة من المعلول ، فتشتد أواصـر التركيـب.**

***ـ ثم يبين أبو الطيب أن الأيام إن سرتك بمحبوب فجعتك بفقده إذا استردتـه ، وقـد أرينك العجب حيث سررنك ثم فجعنك، وهذا عجب أن يكون الشئ الواحد سببا للسرور والفجيعة.**

***ـ وتـأتي بلاغـة التعبير بـإنْ الشرطية فـي قولـه " وإن سررن بمحبـوب "ـ دون غيرهـا من أدوات الشرط ـ من الدلالـة على أن إمتـاع الأيـام بـالمحبوب لـيس كثيـرا ولا مطـردا ، فالكــلام بهـذا داخـل فـي بـاب التعزيـة الجيـدة لسيف الدولة من طرف خفيّ، من باب " إذا عمت البلوى هانت " فهذه طبيعة الأيام عموما ، والأمــر ليس مقصورا على سيف الدولة.**

وربما احتسب الإنسانُ غايتها وفاجأته بأمرٍ غيرِ محتسَب
وما قضى أحد منها لُبانته ولا انتهى أرَب إلا إلى أرب

المعنى :

ربمـا حسـب الإنسـان لنفسـه غايـة أحداث الليـالي ، وأن يعيش دهرا طـويلا ، فتفاجئه بما لم يكن في حسـابه.

***ـ والإنسان لا يقضي من الدنيا حاجته، وإن عمّر فيها دهرا طويلا ، لأن وراء كل حاجة حاجة أخرى ، على حدّ قول الشاعر:**

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي (١)

***ـ وقد لعب الطباق هنا " احتسب ـ غير محتسب " دورا مهما في إبراز هذا المعنى بما ينطوي عليه من الجمع بين المتناقضين.**

***ـ وعلى عادة أبي الطيب ـ من صبغ عباراته بصبغة العموم والشيوع ـ تنهض النكرة في سياق النفي في قوله " وما قضى أحد منها لبانته " بهذا الغرض .**

***ـ والأبيات هنا ـ مع ما سبقها ـ تجري في مضمار الحكمة التي تميز بها شاعرنا ، ولا تكاد تخلو منها قصيدة له (وفي هذا ما يوافق رغبة الشاعر من العلوّ والزهو بالنفس ، إذ الشاعر جعل من نفسه الرجل العاقل الحصيف الذي يقتدي به الجميع ، ولهذا جاءت القصائد مليئة بالحكم المتوازنة)(٢).**

***ـ وتكتسب أبيات الحكمة هنا قيمتها من جهة أخرى: وهي كونها موجهة إلى سيف الدولة ، والحديث إلى الملوك والأمراء يناسبه اكتنازه بالحِكَم .**

---

١)البيت للصلتان العبديّ من قصيدة جاء فيها " أشاب الصغير وأفنى الكبـ ير كرُّ الغداة ومرُّ العشيّ ـ انظر خزانة الأدب للبغدادي ـ ت عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ١٨٢/٢ ، الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ ت أحمد شاكر ـ دار المعارف.

٢)قصيدة الرثاء عند المتنبي١٢٩

تخالفَ الناس حتّى لا اتّفاق لهم ... إلا على شجَب، والخُلفُ فى الشّجَب
فقيـل تخلُص نفسُ المرء سالمةً ... وقيل تَشْرَكُ جِسمَ المرء فى العطب
ومن تفـكّر فى الدنيا ومهجتِه ... أقامه الفـكر بين العجز والتّعب

(١)

المعنى :

اختلف الناس في كل شيء ، حتى لا يوجد منهم اتفاق إلا في الموت ، فإنهم اتفقوا على كونه ، ومع ذلك اختلفوا فيه ، فقيل تسلم روح المرء فتبقى حية بينما يهلك جسمه ، وقيل تموت النفس مع الجسم .

***ـ ومن تفكر في أحوال الدنيا وتقلبها بأهلها وفي حال نفسه فيها ، وأراد الوقوف على حقيقة الأمر أتعب فكره ، وانقطع عاجزا لم يحصل له علم بأحوالها ولم يقف على حقيقة أمرها ، فهو يتعب تارة في طلب الدنيا وتارة يترك طلبها خوفا على مهجته ، فلا ينفك عن طلب وعجز.**

***ـ ويبني أبوالطيب صدر البيت الأول على مبالغة جيدة ، مؤسسة على القصر بالنفي والاستثناء، حين جعل الناس لا اتفاق لهم في شيء البتة إلا في شيء واحد : هو الموت.**

---

١) الشجب والعطب بمعنى الهلاك ـ لسان العرب " عطب " ، شركه في الأمر ـ بالتحريك . يشركه : إذا دخل معه فيه ـ لسان العرب (شرك)

***ـ ثم عاد وذكر أن هذا المتفق عليه الأوحد " المـوت " اختلفوا فيه ، ومن هنا بانت أبلغية إيثار صيغة التفاعل في " تخالف " في الكشف عن هذه الحقيقة على حد قوله تعالى " ولا يزالون مختلفين)([1])**

***ـ ولعب الطباق بين " تخالف واتفاق " ثم المقابلة البديعة بين " تخلص سالمة ـ تشرك في العطب " دورا بارزا في جلاء المعنى وبيان الصورة ، بما يقوم عليه من الجمع بين المتناقضات، فأبرز التخالف بين الناس في كل شيء ، ثم عرضا لهذه الآراء المتناقضة في تفسير الموت ، فزاد الكلام حسنا والمعنى فخامة.**

***ـ ثم يُبنى الفعل للمجهول في " قيل " لتعدد الآراء في تفسير حدوث الموت (فالدهرية ومَنْ يقول بقدم العالم يقولون إن الروح تفنى كالجسم ، و المُقرّون بالبعث يقولون : الأرواح تَسلم من الهلاك ولا تفنى بفناء الأجسام)([2])**

***ـ فضلا عن عدم ترتب مزيد فائدة على ذكر الفاعل هنا ، إنما مزيد الفائدة يكمن في بيان الاختلاف الواقع.**

***ـ وقد جاء التكرار في " شجب " ، " الشجب " لإبراز المعنى المراد وتقريره في النفس.**

***ـ ويأتي البيت الثاني " فقيل تخلص نفس المرء ..." بمثابة التفصيل للإجمال والإبهام الوارد في عجز البيت الذي قبله ، ولا يخفى ما في التفصيل بعد الإجمال من إيقاع المعنى في النفس أطيب موقع وتمكنه أفضل تمكن ، فقد جاء والنفْسُ عنه باحثة وإليه متطلعة ، والشيئ إذا نيل بعد طلب وشوق كان في النفس أوقع.**

---

١) هود ١١٨

٢)شرح الديوان للعكبري

***ـ ثم انظر إلى جمال الاستعارة المكنية في قوله " أقامه الفكر " فقد منح الفكر صفة العقلاء، فصار يُقيم غيره على الأمر على سبيل التشخيص .**

***ـ والأبيات وإن أخذت شكل الحكمة الفلسفية ـ وهذا ما لم يرُق للبعض(١) ـ إلا أنها مُبينة عن نفس أبي الطيب فيها (فهو يكاد ينقطع ويسقط من العجز والتعب والفكر في الذي أصابه بموت حبيبته " خولة ")(٢)**

***ـ وتأتي أبلغية مجيئ أبيات الحكمة آخر القصيدة هنا من كون خاتمة الشيئ هي آخر ما يعلق في الذهن ويرسخ في الذاكرة ، وعن بلاغة حسن الختام يقول ابن رشيق القيرواني:**

(وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما،لا تكمن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قُفلا عليه)(٣)

---

١) الصبح المنبي صـ٣٨٦ ، مع المتنبي . د طه حسين صـ ٢١٤

٢) المتنبي ـ العلامة شاكر ـ ٣٥٥

٣) العمدة . ابن رشيق . ت محمد محي عبد الحميد . ط دار الجيل ـ خامسة ـ ١٩٨١م ـ باب المبدأ والخروج والنهاية ٢٣٩/١

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الأمين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ورضي اللهم عن أصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد

بعد هذه الجولة المفعمة بالأحاسيس الصادقة والمشاعر الدافقة في شخصية شاعر الحكماء وحكيم الشعراء " أبي الطيب المتنبي" ، يطيب لي أن أوجز أهم ما توصلت إليه دراسة " رثاء المتنبي أخت سيف الدولة الكبرى"

١ـ أثارت قضية حبّ المتنبي أخت سيف الدولة " خولة " كثيرا من اللجب بين مؤيد ورافض ، وارتاحت الدراسة إلى القول بأن حب "خولة " قد زلزل كيان المتنبي حتى ذلّ في محراب الحبّ ، وأن هذا الحب قد دلّ عليه غيرُ دليل وشاهد ،وأن عاطفته تجاه " خولة " عالية الأحاسيس ، بالغة الصدق ،دافقة المشاعر،وهي تجربة ثرّة مؤثرة في مسيرة الرجل.

٢ـ استخدم أبو الطيب في رثائه " خولة " الكثير من مفردات الغزل ،دون الإخلال بالمقام الرئيس، وما يقوم عليه من تفجع ولوعة ، إضافة إلى عدم حرمان المرأة من أنوثتها ، وهذا لعمري مركب صعب من الشعر ركبه أبو الطيب.

٣ـ زاوج أبو الطيب بين المدح والرثاء ـ مع احتفاظ كل لون بسمته ـ فقد وصف أبو الطيب سيفَ الدولة بصورة من صور الجود بديعة ، قلما نجدها عند غير سيف

الدولة ، وهي " جوده برقاب أعدائه على الموت " وذلك في قوله :(وكم صحبت أخاها في منازلة وكم سألت فلم يبخل ولم تخب)

٣- في ذكر أبي الطيب لسيف الدولة في رثائه هنا دليل على صدق حبه وعميق إخلاصه ، ليس لمحبوبته المرثية " خولة " فحسب ،إنما لأخيها صديقه الحميم " سيف الدولة الذي ظل ماثلا في عقل وفكر وقلب وأمام عيني أبي الطيب ، فهو الحاضر الذي لايغيب ، تجد ذلك في قوله "يا أخت خير أخ " ، " وكم صحبت أخاها في منازلة " ، " فكيف ليل فتى الفتيان في حلب "، وفي ذلك دلالة على أن حبّ سيف الدولة قد اختلط بلحم المتنبي وعظمه ، وأرى أن سيف الدولة يستحق هذا وزيادة.

٤- شكلت الاستعارة المكنية مساحة كبيرة في القصيدة ، وقد عرضت الدراسة تفسيرا لهذا الشيوع،كما

ذكرت الدراسةُ ظواهر هذه الاستعارة في رثاء المتنبي " خولة " ومن أبرز هذه الظواهر:

ـ غزارتها وتعاقبها ـ صياغاتها جاءت غير تقليدية.

٥- أبانت الاستعارة في القصيدة عن أقصى درجات انفعال الشاعر و تفاعله مع ما حوله .

٦ـ لفتت ظاهرة " خطاب ما لا يعقل " الانتباه إلى ضرورة إفرادها بدراسة متأنية راصدة في شعر أبي الطيب كله ، ومن أمثلتها هنا :

" غدرت يا موت " ، " وهل سمعت سلاما لي ألمَّ بها "

٧ـ كما برزت سمة "التكرار " في ثنايا القصيدة ، وتنوعت أشكال هذا التكرار ما بين : تكرار الاسم ، تكرار الفعل ، وقد تلمست الدراسة بعض التفسير لذلك.

٨ـ لم تخلُ القصيدة من بثّ أبيات الحكمة التي لا تكاد تخلو منها قصيدة له ، وقد عرضت الدراسة تعليلا كاشفا لهذا .

٩ـ أظهرت الدراسة أن رثاء المتنبي " خولة " يختلف اختلافا بينا عن بقية رثائه آل سيف الدولة ، والفرق الجوهري في هذا أن أبا الطيب في رثائه " خولة " كان ثكلى مفجوعا ولم يكن نائحة منتدبة .

١٠ـ كما ميَّز رثاء المتنبي هنا توجُهُّه بالحديث أولا إلى المرثية نفسها ، على غير عادة الشعراء في هذا السياق.

١١ـ يلفت البحث النظر إلى أهمية دراسة "مراثي المتنبي آل سيف الدولة " بغية الوقوف على الفروق بين كل منها ، وأثر ذلك في بيان أبي الطيب ، وبيان المعجم المستخدم في كل رثاء ، وعوامل الإجادة فيه.

١٢ ـ تمثل القصيدة هنا دليلا بارزا على أننا أمام أديب مشاعره متوهجة ، وأحاسيسه مع المرثية عالية ، ومع هذا لم تخنه عبارة فتفصح عما في قلبه.

١٣ ـ براعة استخدام أبي الطيب للمحسنات البديعية ـ خاصة الطباق والمقابلة ـ في سياق ذكره للمتناقضات من الأشياء ، وهو ما يتسق مع ما يقوم عليهما هذا الأسلوبان من الجمع بين المتناقضات.

المصادر والمراجع

١	العمدة ـ ابن رشيق ـ ت محمد محي عبد الحميد ـ ط دار الجيل ـ خامسة ـ ١٩٨١م
٢	أساليب القصر في القرن الكريم وأسرارها البلاغية د صباح دراز ـمطبعة الأمانة بالقاهرة-أولى ١٩٨٦-
٣	أسرار البلاغة ـ عبد القاهر ـ تحقيق محمود شاكر ـ مطبعه المدني
٤	بغية الإيضاح ـ الشيخ عبد المتعال الصعيدي ـ مكتبة الآداب
٥	بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب- المنسوب لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي(ت ٣٢٠هـ) تحقيق : د/ احمد السايح مركز الكتاب للنشر ـبالقاهرة ـ بدون تاريخ
٦	التصوير البياني في شعر المتنبي ـ د الوصيف هلال إبراهيم ـ مكتبة وهبة ـ ثانية ـ دون تاريخ
٧	الحماسة البصرية ـ علي بن أ بي الفرج بن الحسن البصري ـ ط - مكتبة الخانجي ١٩٩٩ م ـط - اولي تحقيق عادل سليمان
٨	خزانة الأدب ـ البغدادي ـ ت عبد السلام هارون - ط الخانجي
٩	خزانة الأدب للبغدادي ـ ت عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي
١٠	دراسات منهجية في علم البديع ـ د /الشحات أبو ستيت ـط-دار خفاجي ـ قليوبية - أولى ١٩٩٤م
١١	دلالات التراكيب - د.محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - ثانية - ١٩٨٧م
١٢	ديوان البارودي ـ تحقيق : على الجارم ـ محمد شفيق معلوف ط دار العودة - بيروت١٩٩٨م
١٣	ديوان المتنبي بشرح أبي العلاء " معجـز أحمد " ت : د عبد المجيد دياب ـ ط دار المعارف - ثانية١٩٨م
١٤	ديوان المتنبي بشرح العكبري
١٥	ديوان المتنبي بشرح الواحدي
١٦	ديوان المتنبي بشرح ابن جنى " الفـسر" ت د رضـا رجب/ ط دار الينابيع ـ دمشق ـ أولي٢٠٠٤م
١٧	ديوان المتنبي بشرح عبد الوهاب عزام ط - دار بيروت للطباعة والنشر سنة١٩٨٣م
١٨	الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ ت أحمد شاكر ـ دار المعارف.
١٩	الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ يوسف البديعي ـ ت مصطفى السقا، محمد شتـا،عبد زيادة ـ ط ثالثة - دار المعارف
٢٠	الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس د- وحيد صبحي كبابه ـ من منشورات اتحاد الكتاب العرب١٩٩٩ م
٢١	العرف الطيب ـ شرح ديوان أبي الطيب ـ ناصيف اليازجي ـ ط بيروت ١٨٨٢م
٢٢	علم المعاني دراسة نقدية بلاغية ـ د - بسيوني فيود ـ مكتبة وهبة ١٤٠٦هـ
٢٣	في عالم المتنبي ـ د عبد العزيز الدسوقي - دار الشروق - ثانية
٢٤	قصيدة الرثاء عند المتنبي ، الرؤية والأداة - رسالة ماجستير ـ إعداد سند علي الجهني ـ إشراف أستاذنا الدكتور محمود توفيق سعد - جامعة أم القرى - كلية اللغة العربية
٢٥	لغة المتنبي - د إبراهيم عوض - ط الشباب الحرّ - القاهرة
٢٦	المتنبي ـ العلامة محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي بالقاهرة١٩٨٧م
٢٧	مختصر تاريخ دمشق ـ ابن منظور ـ ط دار الفكر ـ تحقيق رياض مراد ـ روحية النحاس
٢٨	مع المتنبي ـ د طه حسين ـ
٢٩	المقفي ـ المقريزي - تحقيق محمد اليعلاوي ـ دار الغرب الإسلامي ـ أولى ـ١٩٩١م
٣٠	نظم الدرر في تناسب الآيات ـالبقاعي - تحقيق ـ عبد الرزاق مهدي غالب ـدار الكتب العلمية بيروت
٣١	الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ القاضي الجرجاني ـتحقيق هاشم الشاذلي ـط-دار إحيا التراث العربي ١٩٨٥م
٣٢	الوشي المرقوم، ضياء الدين ابن الأثير: تحقيق: جميل سعيد، بغداد، العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م
٣٣	يتيمة الدهـر في محاسن أهل العصر ـ الثعالبي ـ ت د مفيد قميحة ـ دار الكتب العلمية بيروت - أولى١٤٠٣هـ